(4) تركيب الشظايا

لماذا يكون الداعية -أو كل هادف مُيمّم- فى بداية أمره: أشجع، وأكثر اندفاعًا، وأسخى، وأنجد؟

سؤال صعب، لكن جوابه يهمنا جدًّا فى منهجية التربية الريادية، ويلزم أن نفكر من أجل تفسير هذه الظاهرة الغريبة التى وصفها البعض بأنها «لذة البداية» دون أن يعلل.

وفى ظنى أن هذا المقتحم المظفر كان فى ممارسته الأولى خامًا بريئًا من العيب، على ما خلقه الله تعالى من طبيعة معتدلة وفطرة متناسبة، أبيض الصفحة، سوى الشعور، متزن النفس، وسطى الاختيار، حيادى النزعة، محرَّر الذمة، لذلك يندفع ويتوغل بمحركات الأصالة التى لا يشوبها تعكير، ولم يستهلك بعضها استعمال، ولا ثلم كمالها اصطدام، أو نَحَتَ منها احتكاك.

لكنه لا يتحرك فى مجال محتكَر له، وإنما هناك العدو والمنافس والحليف المقصِّر والنصير الساذج والواعد المتخلّف، فيكون التحام، أو اشتباك، أو معركة، وينجلى الأمر عن إحدى حالات ثلاث:

* أن يكون هو المنتصر الغالب، أو الناجح المتفوق، وهنا ينفتح باب لظهور صفات كامنة فى النفس، لكنها كانت سابتة، مثل بذرة جافة يسقيها ماء فتنفلق، فيفصح عن زهو وخُيلاء وغرور، فيقل اندفاعه بسبب هذا الاختلاط النفسى ونتيجته التخديرية، أو بسبب توقف البركة الربانية عن التنزّل عليه، وصمت الملائكة عن الدعاء له وتشجيعه. وأكثر الناس يصرعهم هذا العُجب ويداخل أمرهم بعد الإنجاز رياء، إلا القليل، ولذلك لم يستغلق أيضًا أمر كل فائز عند البداية على فتور لاحق، بل منهم العاقل اللبيب الذى يفتأ ماضيا.

* أو يكون على العكس هو المغلوب المهزوم، وقد ضايقه منافس، وعرقل سيره من هو أقوى منه، من عدو، أو طارئ حسود، فسيطر عليه يأس، وشعور تثبيط، ويظل يرزح تحت رهق الإحباط إن لم تكن نفسه قوية.

* أو يكون قد طال دربه وكثر بذله من دون تحصيل نتيجة سريعة، فهو المتعَب المستنزف، ويعريه ملل يؤدى إلى إبطاء.

أحد هذه المآلات الثلاثة سيجعل الاستئناف شيئًا غير المضى الأول، وتصبح البداية مجرد ذكريات حلوة، فى أحسن أحوالها أنها تنضم إلى الصفات الإيجابية كعامل تحريك، وقد تكون عامل تعويق إذا قارنها أسف، ولربما يقترب الداعية ثانية من تناوش النجاح إذا هُدى إلى طريق الحساب والتخطيط وضبط الاندفاع وقياس الأمور والإذعان لموجبات الحذر والوقاية.

لكن مفتاح العلاج يكمن فى أن لا ندعه إلى مقدرته هو، أو نحيله إلى لباقته، بل يجب علينا كمربين أن نقحم أنفسنا فى أمره وقضيته، ونشرع فى تفهيمه ما يردّه إلى «الاتزان العقائدى» قبل الاتزان التخطيطى، **والذى يستند إلى دعامتين:**

* **الإيمان العميق بالقدَر**، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن فى ذلك من الحكمة ما يليق معها التأول، إما برؤية معنى العقوبة فيه، أو الامتحان، أو تأجيل نصر الله للمؤمن، ولكن نفهمه أيضًا أن إتيان الأسباب وفق ظاهر الشرع من تمام الإيمان، وأن القدَر سرٌّ من أسرار الله تعالى، لا يمكن لأحد أن يطلع عليه على سبيل الجزم، وإن كان يؤذن لمؤمن ربما أن يراقب طرائق جريانه من خلال استعراض التاريخ وتبدلات الواقع، فيخمّن ويتفرّس فيقيس، وقد يقارب، لكن ذلك لا يمنع أن نصارع قدر السوء بقدر الخير، وجميع أحكام الحلال الشرعى تصلح أن نعتقد أنها من مظان الأقدار الخيرية، فنأتيها، ترجيحًا أن يكون بها دفع للشر. وشرح ذلك تنتظمه لغتان: عقلية وقلبية،ويحتاج إلى مقارنات كثيرة وتأمّل طويل ومراقبة مكثفة لحياة الأفراد والجماعات والأمم والدول لكى يتضح، وإنما تعين على ذلك محاورات هادئة بين المربى وتلميذه؛ يكون خلالها تبسيط وصف الحياة، بعيدًا عن البلاغيات والرمزيات، فى محاولة إرجاع كل نتيجة إلى جذورها وأسبابها، ومن خلال رؤية القصص المتماثلة: نستنتج معانى توضح بعض المسيرة القدرية ربما تكون أصلاً لقياس يتوقع نتيجة مستقبلية لفعل حاضر هو السبب الذى ينتظر نتيجة، وهذه صنعة تتفاوت مقادير المسلمين فى إتقانها ويؤثر فيها الذكاء وعمق الإيمان معًا، مع طول التجربة وسعة العلم بالتاريخ والوقاع.

* **وتصحيح النية وتمحيض الإخلاص** يمثل الدعامة الثانية، إذ لابد من تمام التجرّد، وتطهير المقصد من شوائب الرياء والحسَد وتنافس الأقران، وذلك يكون من أصل العقيدة أيضًا، بأن يصدّق تصديقًا جازمًا لا ريب فيه ولا شك بأن ما يقوله الله تعالى يفعله، فورًا أو بعد إمهال، وهو سبحانه يراقب عباده وأفعالهم، فيثيب قبل الآخرة بتيسير فى الدنيا وإحلال بركة وإضفاء مهابة ومحبة، أو بصعاب ورفع بركة وهوان، **ومن أشد العقوبة**: أن يوكل المرء إلى نفسه، ليست معه قوة الله ولا حوله، ولا يكون معه من الملائكة من يذيع حُبّه ويردّ عنه ويقاتل، وأن يوقن بأن الله تعالى خبير: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ ، كما فى آية سورة الأنعام، وأنه كإنسان أكبر من الورقة والسمكة والحبَّة، وأن الله أشد له مراقبة، فيرى ما يفعله ويُنميه إذا قصد به وجهه، ويمحقه ويكتب عليه المحو والنسيان والهجران إذا غلب القصد الدنيوى، كالذى سَلف من المحدث الثقة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب شريك مالك بن أنس فى إمامة المدينة المشرفة، لما قال حين بلغه بدء تدريس مالك للموطأ واجتماع الناس عنده: لأصنفنّ موطأ أكبر منه. وكان حسدُ الأقران يحركه، ربما، فصنفه، فقال مالك: ما كان لله بقى. ودارت الأعوام والقرون، وإذا بموطأ ابن أبى ذئب لا يعلم به أحد، غير أحاديث قليلة نقلها البخارى فى صحيحه، بل حتى ولا توجد مخطوطة لموطأ المنافسة هذا، إذ الأجيال تحتفى بموطأ مالك، حتى أن الدارقطنى ألف كتابًا رصد فيه اختلاف ألفاظ تسعين رواية مستقلة كاملة لموطأ مالك عن تسعين من تلامذته، والبخارى وحده انتقى من أربعة عشر رواية منها رواها له شيوخه من تلامذة مالك، عدا ما رواه بواسطة، فانظر البركة، وانظر العقوبة، وانظر شيوع الذكر، وانظر خفوته، وما يشاء الله يفعل، وما يَعِد يكون.

فبهاتين الدعامتين من مراقبة القدَر وتجريد النية يرجى أن يحوز الداعية الصاعد «الاتزان العقائدى» الذى يحفظ أداءه الدعوى على درب الوسطية، ويحفظ له وتيرة معتدلة من التقدم المستمر بعد عنفوان البداية.

نظرية التكامل

والذى يشير إليه التأمل، واسترجاع ذاكرتى واستعراضى لما رأيت ومرّ فى حياتى من قضايا تربوية ومحاورات مع الدعاة المربين: يؤكد لى أن قضية «التكامل» تحتل أهمية كبيرة فى

منهجية التربية الدعوية بعد «الاتزان العقائدى»، فكل فهم أحادى أو ناقص، وما ينبنى عليه من تخطيط أحادى التوجه أو ناقص، يؤديان إلى خلل تربوى فى صورة إفراط أو تفريط، وطغيان جوانب على جوانب. بمعنى أن «التوازن العام» فى فهم القضية الدعوية يضطرب، والاضطراب يؤدى إلى مشاكل حتمًا، فإذا غفل الدعاة أثناء محاولتهم النقدية لحل تلك المشاكل عن معنى فقدان التكامل كسبب فى ذلك فإنهم يدورون فى متاهة من التعليلات ويخترعون لها تأولاً ومنطقا متكلفًا يزيد الحيرة والإشكال، ويؤدى الأمر فى النهاية إلى تصلب على الطرائق الناقصة والفهم الناقص، وإلى تعصب ربما عند تقادم الخطأ، إذ يتحول الخطأ المفلسَف المتأول إلى عُرف تُسرع الاتهامات إلى مَن يخرقه، بل إلى تُراث له مسحة قدسية ربما إذا انتقل الأمر إلى جيل ثان ينظر بعين الإعجاب إلى الجيل المؤسس الذى أرسى الخطأ، وهذا هو الذى أراه حَدَث فى الجماعات الإسلامية التى عجزت فى أول أمرها عن إدراك الشمول ولم تتسنّ لها نظرة تكاملية للأجزاء الدعوية، فلزمها النقص حتى بعد تقلبها فى المراحل وتقدمها وتوغلها وتعاقب أجيالها، ذلك أن الله تعالى خلق «الحياة» فى أحسن تقويم، كما خلق الإنسان فى أحسن تقويم، أى ليست أجهزة الإنسان فى داخل جسمه وأعضائه وطبيعة عقله وروحه هى فقط فى أحسن تقويم تؤدى إلى سواء الأداء، وإنما البيئة التى من حوله، وظروفه المعاشية، والموارد، والبدائل، والتوزعات القدرية؛ كلها فى أحسن تقويم وحساب وتوازن، بل كل ذلك تفصح عنه حقيقة انفراد الأرض من دون الكواكب بمقومات الحياة التى سخرها الله تعالى لخدمة الإنسان، فإذا لم يتجانس تصرف الإنسان مع التقويم الحيوى الحسَن: تولدت المفارقة، وانثلم التكامل المؤدى إلى التوازن، وقد أدرك بعض قدماء السلف بعض هذه الظاهرة فتكلموا عن «البدايات» صلاحها وصوابها، وتأثيرها فى «النهايات»، وذكروا «مبادئ الأمر»، ولكن لم يطنبوا فى الشرح، وهذه المعانى هى التى جعلتنى أصرح فى محاضراتى عن معالم التطور الدعوى بأن «الشمول» الذى استوعبه الإمام البنا رحمه الله مع أول خطوة فى دعوته كان إلهامًا ربانيًّا وتوفيقًا خاصًّا، لعجز الكثيرين بعد أكثر من سبعين سنة عن إدراك مثله، ولكونه كان فى «مبادئ الأمر» فإن أمر الدعوة قد استقام عليه فى النهايات.

هذا هو الذى يحدو بنا إلى تقرير «التكامل» الذى ينتج «الشمول» كركن فى المنهجية التربوية، لأنّا لا نريد للجيل الوارث الجديد أن يتلقى ذلك تقليدًا وتنسيه العواطف مغزاه

وسببه وفقهه، بل نريد أن يتلقاه تلقى فهم واستيعاب واجتهاد، ليحسن المحافظة عليه ويشارك فى تطويره وتأكيده.

وأسلوب تقصى المفردات والأجزاء والربط بينها فى وحدة متجانسة هو الجانب الأهم فى تكوين «التكامل»، وكلما تم اكتشاف جزء وتمت دراسته جيدًا وتمكنّا من توصيفه ومعرفة فقهه وإضافته إلى أشباهه وأمثاله: كلما كان الاقتراب من التكامل قد اجتاز خطوة، وهذا هو الذى استعرت له فى عنوان الفصل تعبير «تركيب الشظايا»، كمثل قِطع الفسيفساء التى تكّون صورة كبيرة، وسيأتى فى آخر الفصل تمثيل عريض لأجزاء تربوية صغيرة ينبغى أن ينضم بعضها إلى بعض لتكوين جانب من الصورة التربوية الدعوية، وأن يضاف لها مئات أجزاء مثيلة وردت فى إحياء فقه الدعوة وفى كتابات الآخرين لإتمام تكوين الصورة، وظنى أن الإضافات ستظل تترى واكتشاف الأجزاء سيستمر، بل أظن أن كل سؤال يسأله داعية للمربى يمكن أن يحتل جوابه حيزًا فى الصورة التربوية التى ما تكاد تكتمل كليًّا بل تظل تزيدها اللمسات الجديدة كمالاً وإشراقًا، حتى ولو بنقطة أو تغيير لون فى جزء من خط فيها، وأقرب مثال تشبيهى تقريبى للمعنى أجده فى المهمة التى تولتها وما تزال تتولاها بحوث طلاب الدكتوراه وتقارير الباحثين فى تكوين الصورة الحضارية المدنية العلمية الشاملة، فكل باحث أو طالب إنما يركز على دراسة جزء صغير من حقائق المادة والطاقة والعلاقات، والكتلة الفيزياوية الكيماوية الهندسية التى تقف وراء المخترعات وعمليات الصناعة اليوم تم تشكيلها من عشرات ألوف البحوث الجزئية فى خصائص العناصر والتركيب الذرى والسبائك والمركبات، مثلا، واكتشاف خصائص جديدة يؤدى إلى تطوير مستمر، وكذلك التربية الدعوية، تتألف من ألوف الحقائق التجريبية والآراء الاستنباطية التى يكتشفها أساتذة التربية فى الدعوة، مثل فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمسانى رحمه الله، وفضيلة الأستاذ المرشد مصطفى مشهور رحمه الله، وقد أكثر، والأستاذ عباس السيسى، والشيوخ والأساتذة: يوسف القرضاوى، وفتحى يكن، وسعيد حوى رحمه الله، ومحمد الوكيل وعلى عبد الحليم وسيّد نوح وجمعة أمين وجاسم مهلهل وعبد الحميد البلالى وعلى الحمادى وعبد الله قادرى وعلى بادحدح، والمطلوب أن يستمر هؤلاء وأمثالهم فى الإدلاء بالنظر التربوى عبر تأليف الكتب، والكتابة فى المجلات التربوية، مثل مجلة «العين» وأخوات لها يجب أن تصدر فى البلاد

المخضرمة، ثم ينبغ فى كل مفصل زمنى داعية يجمع «الشظايا التربوية» التى أدلوا بها فى مدونة جامعة، ويتكرر الأمر، فتكون «التربية المتطورة»، وهذه لمسة منهجية مهمة حرى بنا أن نتقنها.

وهذا الجمع للأجزاء الموضوعية فى نسق واحد وترتيب أظنه ديدنًا قديمًا فى منهجية المربين من علماء الأمة الأوائل، لكنّا لا ننتبه أحيانًا لفحوى بعض العلم الذى نحتفل به، ولا نرى هذه الصفة المنهجية فيه، فالترتيب الذى قام به الهروى لدرجات الإيمان هو عندى من هذا القبيل، إذ إنه ميّز مائة خُلق إيمانى وعبادة قلبية، وجعلها فى نسق، فهو تجميع أجزاء وتركيب شظايا إذن.

وكذلك صنيع الغزالى فى إحياء علوم الدين: قام على إحصاء خصال الإيمان والإحسان والمعروف رتبها وحشد فروعًا كثيرة تحت كل نوع منها، ونجد لكثير من العلماء عبر استطراداتهم بيان درجات وترتيب عمل معين، كقول ابن القيم فى أول فصل الجهاد من زاد المعاد: الجهاد ثلاث عشرة مرتبة، وفقه «الأصول العشرين» للإمام البنا إنه حصرٌ واستقصاء لأجزاء كثيرة توحدها محاور موضوعية تجعلها كتلة واحدة متجانسة، وكل ذلك أراه اقتفاء لأسلوب قرآنى تبرزه آية البقرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة:177] إلى آخر الآية، وآيات جامعة أخرى، وجوامع كلم النبى ﷺ تقترب من ذلك، حين أحصى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله، وغير ذلك كثير.

ومن أهم ثمرات هذا الأسلوب أنه يمكننا من اكتشاف ما سميناه: المحاور، والجوامع، وهى القواعد والموازين التى تتركنا على فهم أدق لمكوناتها الجزئية، وتتيح لنا القياس والاشتقاق وتوليد معنى من معنى، والأمر شبيه بما فعله الفقهاء من التفريع الكثير فى جميع أبواب الفقه، ثم مالوا وانثنوا إلى تصنيفها حسب العدل والدلالات، فاستبانت لهم القواعد الأصولية والفقهية معًا، وشرعوا يستخدمونها للتوليد، واقتفاء أثر ذلك العمل العظيم الرائع الذى قام به الأولون وأدى إلى منهجية متينة للاجتهاد يجعلنا نأمل أن فقهاء التربية الدعوية إذا أحسنوا حصر مقدار واسع من الجزئيات التربوية ثم وضعوها فى موازين وقواعد فإن

منهجية التربية الدعوية ستكون أمتن، ويتاح عندئذ التوليد والقياس والاستنباط والاجتهاد على بيّنة وأساس راسخ وتأصيل تربوى سليم.

وراثة جماعية نقية فى أطراف الأرض

وينساب التكامل فى الحياة الدعوية انسيابًا هادئًا غير متكلف، حتى أضحت نتائجه، لطول انسيابه منذ النشأة: أعرافًا يتعارف الدعاة عليها من غير نكير، وهم إلى المحافظة عليها أحوج من ابتكار غيرها، ويليق لكل مخطط أن يسأل نفسه عن مدى انتباه خطته إليها واستيفائها لمقتضياتها.

ويواجهنا التكامل بخمسة وجوه.

أو أننا إذا نظرنا إلى صورته التكعيبية المجسّمة فسنرى فيه خمسة أبعاد:

* التكامل فى بُعده الزمنى:

فلسنا مجموعة طارئة تولدها ردود أفعال وضرورات آنية، وإنما يضرب جذرنا عمقًا فى الزمان الأول، بما أنّا أتباع النبوات، وننتسب إلى إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران:68] ، وغيرنا قد يكون نسيبًا وحسيبًا ولكن من غير اتباع.

وفى القرآن الكريم شواهد كثيرة على تذكير الله تعالى لنا أننا على ملة إبراهيم ودينه وإسلامه ومناسكه. وكان رسول الله ﷺ يربّى المسلمين على هذا المعنى ويغرس فيهم أنهم يقتفون آثار إبراهيم عليه السلام، وكان من ذلك أنه أرسل الصحابى ابن مربع رضي الله عنه إلى مجمع المسلمين بعرفة يبشرهم، فقال فيما رواه الترمذى: «إنى رسول رسول الله إليكم، يقول لكم: كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرثٍ من إرثِ إبراهيم»[1].

وفى الأيام العادية ما كان أحد يحس بمغزى هذا التكامل، لكن في أيام التطبيع العسر هذا اليوم يتأكد المعنى، ويصير معلمًا من معالم منهجية التربية الدعوية التى يبذلها الدعاة للمسلمين عامة، من أجل أن يتكرس التمايز التام، وأن ينغرس مفاد أولويتنا بإبراهيم، وأننا نحن الذين لبثنا أوفياء لما كان عليه من بين بنيه، لا يهود الذين انحرفوا وأسرفوا، وأن هذا

(1) فتح البارى 4/ 264.

التصريح النبوى الكريم الذى معنا يعتبر وثيقة تامة ودليلا قانونيًّا يبطل الأساس المعنوى الذى تقوم عليه سياسات التطبيع.

وهذا الاتصال بالجذور الماضية العريقة يوجب علينا دراستها وفحصها بدقة، لتوضيح مكامن الفخر ومنابع العاطفة التى تعمر بها قلوبنا، ولاكتشاف أصول الحقوق التى تمنحنا الأولوية، ثم هى التى تبيّن توسطنا كحلقة حاضرة مع مستقبل يمكن أن نؤثر فيه ونصوغ بعض جوانبه ونحجز أمكنة الصف الأول فيه لنا، ولذلك ينبغى أن نستشرفه ونتخيّل صورته والقوى المتسابقة نحوه، وذلك هو سر احتلال ثلاثية الدراسات التاريخية والتوصيفات الواقعية والاستشرافات المستقبلية لزوايا مهمة فى منهجية التربية الدعوية المفترضة، وقد يصدم اليأس صاحب نظر مستعجل يرى السطوة الأميركية تامة، لا يدرى أن الأيام دولٌ بين الناس، وأن دراسته التاريخية نفسها تريه هذا الميزان الربانى القرآنى فى وصف مسيرة الحياة، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقوننا بأبصارهم إذا رأوا استبشارنا وثقتنا بأنفسنا وسعينا لامتلاك المستقبل، لا يدرون أنه ذِكر وميزان تداول أكيد، يجريه رب العالمين برعايته لمن آمن وثبت وتحدّى وأحسن منهجية التربية الدعوية.

* التكامل فى بُعده المكانى:

وهو الامتداد العريض العالمى الذى يستشعره المؤمن بعمق حين يتأمل لفظًا من أحاديث شفاعة النبى ﷺ لأمته، رواه على بن الحسين بن على عن رجل من أهل العلم أن النبى ﷺ يقول:«ثم يؤذن لى فى الشفاعة، فأقول: أى ربِّ: عبادك عبدوك فى أطراف الأرض»[1].

فهو انتشار فسيح يصل أركان الأرض يُنتج كتلة واحدة مندمجة من العابدين، لها شخصية واحدة، ويقف المسلم مستشعرًا أعلى درجات العزة حين يوقن بأنه جزء من هذه المجموعة الواسعة أفقيًّا فى البلاد الكثيرة على اختلاف الشعوب والألوان، وعموديًّا فى الزمن عبر تعاقب الأجيال، ثم يزداد أملاً حين يجد أن انتماءه إلى هذه الكتلة لا يستلزم إذن أحد وموافقته، إنما هى لفظة التوحيد فحسب، ثم يكرر السجود، ثم يزداد ثقة أنه من حياة النعيم قريب، بما منح الله نبيه ﷺ من رحمة وشفقة وشفاعة، ثم كأنه يصل إلى مستوى اليقين بالأمر

(1) قال ابن حجر: رجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابيًّا. فتح البارى 10/ 14.

المحسوم لصالحه إذا لبثت جبهته على الأرض لحظات قليلة قبل هجوعه كل ليلة، بما وصف به ربّه نفسه أنه الودود اللطيف البر الغفور الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن كثير، ولولا أنه تعالى جبّار منتقم عظيم قهّار لجزم المسلم بعوره، لكنه يعلم أنه والشيطان تغالبا، فكانت الحرب سجالا، فيظل على شعبة من الوجل، ويتمنى أن لو كان نسيًا منسيًّا، كما تمنت مريم وقلدتها عائشة يوم موتها، أو يودّ أن أمّه لم تلده، وأنه يخرج من الدنيا كفافًا لا له ولا عليه، كما ودّ عمر. ومن تعاقب السكينة والرهبة فى السيطرة على قلب المؤمن يشرع يفهم أسرار حركة الحياة.

إن هذه «العالمية» هى فى التخطيط الدعوى ليست مجرد عواطف تملك أقطار قلب المؤمن، ولكنها فى الحقيقة خصوصية فريدة من نوعها تتيح المعنى الجامع الذى يوحد المسلمين كلهم، وتجعل تنفيذ الأمور مشتركا، والتعاون واردا، وأيما طاقة أو خبرة فى زاوية فإنها تخدم الجميع، ولا تقاس القضية على التسيب الحاصل اليوم والتقاطع، فإنه من نتائج الغفلة الماضية.

حتى داخل القطر الواحد، يحدو تكامل المكان إلى معروف يحيد عنه أهل الدنيا، فالاهتمام الدعوى عندنا يكون بكل أرجاء القطر، لا العاصمة فقط، وقد يكون فى قرية شىء من خير كثير، وإن كان لا يمنع مضاعفة الرعاية للمركز لكونه موطن صناعة القرار.

ثم الوحدة العامة لا تمنع المنازل الوسطى، التى تترجمها الترتيبات الإقليمية المسوغة بالتجاور وتماثل البيئة؛ لأن المثل الأعلى فى وحدة الآفاق كلها سيبقى حيًّا مسيطرًا على ما هو دونه.

* التكامل فى بُعده البشرى:

فأول معنى الدعوة: الانخلاع عن الفردية، والصيرورة إلى جماعية.

وفى الكيان الدعوى: عرب وعجم، وفى الصف الواحد زنجى أسود مع الصينى الأصفر، مع الأبيض المقصور البوسنى.

ومسئولية النذارة تقع عندنا على عواتق الرجال والنساء معا.

وفى الدار الدعوية: موظفون، وعمال، ورجال أعمال، وطلاب، ومتعلم، وأمى، وصحراوى، وريفى، ومدنى، بعضهم يردف بعضا.

ومنكب الفيزياوى يلاصقه منكب فلاح، ثم الطفل من ناشئة الدعوة يدرج خلفهما.

والأداء الدعوى تحركه قيادة وجندية وجمهور عريض من الموالين.

ونظرية الأجيال القيادية فى المسار خصصت مجالس لشباب وكهول مع الشيوخ.

وغلبة رفق أبى بكر وازنت غلبة صلابة خالد، فلما حكم عمر صارت شدة حزمه بحاجة إلى أن يوازنها رفق أبى عبيدة ﷺ فى تكامل قيادى يشير به الفقه الصحيح.

*** التكامل فى بُعده الموضوعى:**

فقد رصد الأصبهانى ظاهرة «استيلاء النقص على جملة البشر» فى كلمته المشهورة، وهى توجب علينا استقبال أى خير تقدمه جماعة من المسلمين استقبالًا حسنا، وما من سبب وجيه يدعونا إلى التوتر والتجهم والانفعال الزائد، فإن الجميع أسرى هذه الظاهرة، والأقدار الربانية حاكمة، والأصل عدم العدوان والتخذيل، وأما النقص فيتكفل التكامل بحل مشكلته، فإن ضم الرُبع إلى النصف إلى الربع ينتج واحدًا كاملا، وهو ما كرر الدعوة إليه فضيلة الشيخ القرضاوى؛ وتمنى تعاون الجماعات الإسلامية، من دون أن نهدر قيمة الواحدة منها حتى وإن اعتراها نقص، فإن التنسيق ينتج التكامل فى الأداء، وتقاسم الواجبات مظنة الإتقان، كل جماعة فيما تحسن وما هى به مختصة، لكن النفوس إذا انفعلت أغلقت طرق التكامل وهو منها قريب.

*** التكامل فى بُعده التوسّلى:**

فوسائلنا شاملة: نعتمد التربية والتزكية النفسية كأساس، وننشر الفكر مسالمين محاورين، لكنا نجاهد لتحصيل حقوقنا ودفع ظلم الظالم إن ظلمنا.

وطريقتنا مدنية، تسخر المخترعات لخدمة القضية الإسلامية، وتدفع الدعاة لإتقان جميع العلوم.

ونحن ننطلق من جانب المحراب، لكن نمر بالمدرسة، والجامعة، والملعب الرياضى، ودار النشر، ومعرض الفن، والشريط، والصحيفة، وموقع الإنترنت، ومركز البحث، وشركة المتاجرة، ومصنع الإنتاج، وقاعة الاحتفال، وساحة المهرجان، وشارع التظاهر، وبيت الأيتام، وقدور الإطعام، وساكنى الخيام والدثور والقصور.

وفى استقصاء أدوات صناعة الحياة مثال تام للتكامل فى الوسيلة، وإيضاح لشرف المهن النبيلة.

وفى استدراكنا على الهدم تكامل؛ لأن ملاحقتنا كانت متنوعة، جسديًّا بالمحن، وتنظيميًّا بالفتن، وفكريًا بالتطرف القومى والإلحاد الشيوعى، وخلقيًّا بالفساد، ونفسيًّا بالتطبيع، لذلك تسعى خطتنا إلى إصلاح شامل، فإن المستجيب قد يتعفف، لكنه يظل مخلط الفكر، منهار العزيمة.

فذلك خبر التكامل فى أبعاده الخمسة.

عشارية فى التقعيد التربوى

ونحاول أن ننعطف الآن نحو استعراض بعض القواعد التربوية الدعوية التى أساسها التجريب والخبرة، ليس تعليما لها فقط وترقب أن يجوِّد الدعاة تربيتهم بمراعاتها وتنفيذها، وإنما هى أيضًا أمثلة لتركيب الشظايا، فقد كانت أكثر هذه القواعد غير مدونة، ولم يتداول الجيل الأول بعضها بوضوح، ثم انقدحت أصول وجذور معانيها تدريجيًّا عند بعضهم، ثم عند الأجيال اللاحقة، حتى حصلت إشارات عديدة متقاربة أتاحت كثرتها ضم بعضها إلى بعض لتكون قواعد يعترف بها عدد كبير من المربين الدعويين، وربما نال بعضها الإجماع أو ما هو قريب منه.

* **القاعدة الأولى:** الحرص على التأصيل الشرعى للأعمال التربوية، وتربية الدعاة على طلب الأصالة.

ليس فقط فى التفتيش عن دليل شرعى أو اجتهاد فقهى ينفى عنّا البدعة، ولكن أيضًا إثبات أن بعض وسائلنا التربوية ليست من الاجتهادات العصرية أو الاقتباس من غير المسلمين، وإنما هى صنعة إسلامية قديمة ذهب إليها بعض السلف، وفى ذلك ما يجعل الداعية أكثر اطمئنانا إلى صواب ما يفعل، وأجدر بالفخر فى أنه ينحى مناحى الفقهاء الأولين لا التربويين المعاصرين، ويتولد عنده اعتداد وتمسك أقوى بالأفعال المؤصلة المشهود لها، فنحن نلمس فرحًا يصل إلى درجة النشوة الغامرة إذا اكتشف داعية قول فقيه يلتقى مع مفاد عُرف دعوى أو فقرة فى الخطة، وكأنه اكتشف وثيقة قضائية تثبت أنه وارث شىء ثمين.

فجزمًا أن كمية الأفعال التربوية المشهود لها فقهيًّا هى أكبر فى حجمها اليوم فى الأجيال اللاحقة مما كان يعرفه الجيل المؤسس، وحصل نمو تدريجى فى ذلك، ففى كل سنة يكتشف باحث تربوى تأصيلاً لعمل، أى: تضاف شظية، حتى حصل تراكم كثير أدى إلى أن يقعّد التربويون هذه القاعدة، وغرضهم الحث على مزيد من الشواهد التى نجدها فى ثنايا الأبواب الفقهية وفى كتب التاريخ الإسلامى.

إذن: فوضع هذه القاعدة، وبذل جهد بحثى أو تأليفى أو اجتهادى لتنفيذ مطلوبها هو جزء من منهجية التربية الدعوية. ويعجبنى جدًّا فى هذا السياق ما كان فى الكويت قبل أكثر من عشرين سنة من تكليف طلاب الدورات أن يضع الواحد منهم بحثًا فى جزئية تربوية، فكتبوا وجُمعت البحوث فى الأجزاء الخمسة الضخمة المعروفة باسم «ممرات الحق»، وواضح فى عمل جماعى مثل هذا أن بعضهم يبدع، وبعضهم لن يعدو قدره فى التقليد، ولكن العمل بمجموعه غزير الفائدة، وذهب مثلاً لطريقة منهجية حسنة فى السعى نحو التكامل والتأصيل.

* **القاعدة الثانية:** تجويز الاقتباس المعرفى من الحضارات الأخرى غير الإسلامية لما لا يصادم حقائق الإيمان وأحكام الشرع ومقاصده.

فالتأصيل الآنف أصل، وهذه زيادة تجميلية تكميلية نقصد منها تجويد الأداء، ففى الآداب والفلسفات والفنون وأنماط الإدارة ومنهجيات البحث والتحليل لدى الغرب بخاصة صواب واسع المقدار يمكن أن ينتفع منه المسلم، فى الحقل التربوى أو غيره، لأن الكافر لم ينغلق على خطأ فى كل أمره، بل تحركه بقية فطرة أيضًا، والبقية غير المحرفة من دينه، فلا يمنع حاله من أن أجعل من موازينى الإيمانية والشرعية غربالاً أغربل به ما عنده، فأستخلص وأدع.

والدليل على ذلك ما نلمسه فى التربية «الإبداعية» التى يزداد حجم ما نقتبسه فيها من التجارب الغربية، مما قام به طارق سويدان وعلى الحمادى مثلاً، فقد تلقاها المجتمع الدعوى بالقبول على سبيل الإجمال حتى ولو حصل نقاش فى بعض المقتبسات.

وكذا أساليب الإدارة ومنهجية البحث.

وقد عقدت فصلًا خاصًا فى هذا الكتاب لبيان مواطن الالتقاء ولا أحب أن استطرد هنا، بل سيأتى الأمر مشروحًا.

فالاقتباس حقيقة حاصلة، لا ينفيه غير متنطع متكلف، أو مربٍّ فائق الحساسية يخاف أن يعتاد الدعاة الاقتباس بلا ميزان حتى يتحول إلى جزاف، وهو تخوف له فيه حق، لكن تربية التأصيل تعادل الاقتباس.

وفحص تاريخ هذا الاقتباس فى المحيط الدعوى يرينا معنى انضمام الشظايا إلى بعضها حتى تنضج قاعدة، فإن الاقتباس بدأ بعضه من حيث لا نشعر عبر التربية المدرسية وآثار مطالعة الكتب العامة والصحف، ثم أتى بعضه عن عمد، ولكن كان يمشى على استحياء ووَجَل، ثم ازداد الانفتاح، فصار الأمر عُرفًا أو قاعدة فى منهجية التربية الدعوية.

* **القاعدة الثالثة:** أن المعاناة تحقق نضوج الدعاة، وأن الوعى يحصل عبر التراكم البطىء لأحاسيس كثيرة التنوع تنتجها الممارسة العملية، ولذلك يكون التدرج المرحلى فى العمل الدعوى هو سبيل الإتقان.

وهذه قاعدة تجريبية محضة، شظاياها التى اجتمعت فكونتها كثيرة جدًّا، وكان الإمام البنا رحمه الله يتوقع محنًا وتكذيبًا قياسًا على قصص الأنبياء عليهم السلام، لكن ما حصل فاق حجم التوقع بكثير، ومازالت خُطة العالم فى تعويق مسيرة الدعوة الإسلامية بعد حادثة نيويورك الكبرى تبدى مبتكرات جديدة وإصرارًا غريبًا من نوعه على اتهام الدعاة مما هم منه براء.

وقد حصل نمو فى الوعى لدى الدعاة تناسَبَ طرديًّا مع الرهق الذى أتبعهم فى كل بلد على مدى يومى، من إشاعة مغرضة يروجها شيوعى وملحد ومخابراتى، وتأليب لجهال الناس على الدعاة، وأبدت الغوغاء قابلية لقبول التحريش والأغاليط، ثم كان تأليب علماء السوء على الدعوة، ثم تعدّدت أنواع التنكيل والسجن والتشريد، وكل ذلك سوء يؤذى الداعية، لكنه فى نفس الوقت يربيه ويمنحه تمييزًا أكثر لمعنى الحياة والصراع وأدوات التنافس، ويزوده بفهم لطبائع الناس وأخلاقها، ودور الإعلام فى ذلك، ومكانة المال فى شراء الذمم وإسناد أعمال الخير والشر على حد سواء، وكل مفردةٍ من مفردات الرهق وردود الفعل كانت شظية، لبثت تجتمع إلى مثيلاتها على مدى طويل، حتى نطق ناطق من أهل التربية

رصدها فهتف: إن لدى الدعاة فى الآخر وعيًا شكلته المعاناة هو الثمن والثمرة للآلام المبذولة والآهات والحمل الثقيل، وأن المعاناة كانت لذلك قدرًا ربانيًّا خيريًّا لتطوير التربية الدعوية، فصدّق آخرون زعمه، ولستُ أنا بآخر المصدقين، وتحولت هذه الحقيقة إلى قاعدة تربوية تترجَم بوجوب تأكيد المرحلية وعدم قفز مرحلة التأسيس ومرحلة الانفتاح، وتأجيل الصراع، من غير استسلام للعدو بتوهم أنه يربينى بظلمه، وإنما نصارع قَدَر الشر بقدر من الخير يشهد الفقه أنه يناسب ظرفى وقوتى مقارنة بقوة الخصم، فإن غلبنى الظالم فإنى موقن بأنها غلبة وقتية، وأتأول تأولاً حسنًا حكمة الله فى تمكينه الظالم وإرجاء نصره لى: أنه يريد بالمعاناة أن أكون صابرًا واعيًا، وأن تكون صفوفى نقية من مستعجل ومصلحى.

*** القاعدة الرابعة: التصرف النسبى واتخاذ البدائل .**

وإذا كان أصل هذه القاعدة يستند إلى تأمل واستنباط فإن تفهيمها يحتاج سعة تجربة، وما أظنها مختصة بالمسلم، بل هى من العلم الإنسانى العام، وما هى بحديثة، بل تضرب فى عمق الزمن، وأتاها كبار القادة فى التاريخ، مثل الإسكندر والقياصرة، كما اتبعها الصحابة ونبلاء المسلمين، مثل خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى، ولئن كان استعمالها فى الحرب والسياسة أظهر منه فى التربية: إلا أن استعمالها يحتاج إلى فن تربوى، أقله: تربية الأتباع والجند على الامتثال لمقتضياتها، والتى هى خلاف الظاهر فى الأغلب، وخلاف ما يسرع إلى البديهة الأولى وبادى الرأى.

فالمكث والإبطاء والتقدم الواثق والتأنى وانتظار الظرف الملائم واكتمال التحشيد: فنون متقاربة مناقضة للحث وسرعة الحسم والإمعان والمبالغة فى التوغل.

والمجابهة الصادمة، والمواجهة السافرة، والاصطفاف المتقابل: غير الالتفاف والتملص الذكى والانتشار الواسع بعد تواعد على أجل لاحق.

وبين الشخوص والتوارى عشر درجات من العلنية والسرية، والإعلان والتخفى، والصياح والصمت، والفوضى والنظام، والتمركز والتوزع.

وكل ذلك تتحكم فيه توفيقات ربانية وأقدار، وإلهامات وفراسة، وتخطيط ومعادلات رياضية.

واكتشاف اللائق جزء من القضية، لكن الجزء الأهم: كيف تربى على ذلك وتشرح وتقنع وتبقى مطاعا، فكم من مجرب بصير خذله أصحابه وجنوده فاستعجلوا حين أراد السير الموزون، وكم من حصيف أتى لجيشه بالتقريرات العقلية رديفة للسلاح، ولم يؤجج العواطف ويبعث الحماسة، فأبطأت الاستجابة ورحلت الفرصة!!

وهذه القاعدة متكونة من ألف خبر تاريخى قديم، وألف من التاريخ الحديث، وكل خبر مثل شظية، واجتمعت كلها فى نظر المربين فجعلوها قاعدة.

*** القاعدة الخامسة: الموازنة بين النقائض والمتكاملات .**

فبين التطور والثبات تكامل، والثوابت لابد أن تتيح هامشًا تتحرر حركة المتغيرات ضمنه، ولا يصح أن نحكم على الأساليب والوسائل بالجمود كمن يتلفع ثوبًا واحدًا دهْرَه كله.

وبين العمل التربوى الخاص فى مجتمع الدعاة والعمل العام فى المجتمع الواسع نوع تكامل، والذى يرى وجهًا واحدًا وميدانًا واحدًا إنما هو متزمت لم يفقه أثر السواد الأعظم فى إحداث التغيرات الكبرى فى مسار الحياة، أو هو على عكسه: لا يفهم كيف تقود الصفوة المختارة السواد إلى إجراء النقلات.

وبين القوة الجهادية والقوة العلمية تكامل.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

قال الخطيب البغدادى:

«فجلعهم فرقتين؛ أوجب على إحداهما الجهاد فى سبيله، وعلى الأخرى التفقه فى دينه، لئلا ينقطع جميعهم إلى الجهاد، فتدرس الشريعة، ولا يتوافروا على طلب العلم فتغلب الكفار على الملة، فحرس بيضة الإسلام بالمجاهدين، وحفظ شريعة الإيمان بالمتعلمين» (1).

(1) الفقيه والمتفقه / 11.

* **القاعدة السادسة:** أن تربية التحدى عطاؤها أكبر من عطاء التخطيط التربوى.

وهذا أمر تجريبى محض، وذوقى بحت، ومنطقه لا يقوم حُجة على المخالف، لكنه من مذهبى فى التربية.

فالنتيجة المقصودة من التربية الدعوية هى صناعة مؤمن واع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتقن عملاً ضمن أشكال العمل الكثيرة التنوع التى يتألف من مجموعها الأداء الدعوى الشمولى، ويكون مستعدًّا لبذل روحه ودمه فى سبيل الله إذا اقتضى الصراع ذلك.

من هنا فإن مواكبة المربى لتلميذه فى أيام الشدّة والتنافس يعلمه العزة، والممارسة العملية للنهى عن المنكر تمنح الداعية الصاعد روح الكبرياء على الجاهلية، والتمرّد على الترويض، والصلابة والثبات، وهذه الطبائع والأخلاق الرفيعة هى أرقى الخصال التى تطمح التربية الإيمانية الدعوية إلى تحقيقها، ومن تمثلت فيه سَهُل أن يحوز ما دونها من مراتب الأخلاق بدون تكلف، بل يأنف تلقائيًّا عن اتباع الشهوات ومنازل الدون، ويميل إلى التجمل بالعفاف، ومن كان شجاعًا كان كريمًا ولابُد، والمراقبة الاجتماعية تدل على ذلك، وتشير إلى أن خصال المروءة والنجدة كلها مبدؤها عزة النفس واستبداد شعور الشمم بالعزيز، فيفتأ يطلب الحرية ويتخلق بأخلاق الأحرار.

فمبلغ اجتهادى أن تربية الداعية على محاسن الأخلاق لا تكون وفق التدرج الصاعد من أدنى إلى أسفل، كما هو شأن القواعد التخطيطية وشأن أكثر طالبى الأمور الصعبة، بل يسقط اعتماد التدرج هاهنا، ونحرص على أن نبدأ من أعلى ثم ننزل، بالعزة وغرس روح التحدى ثم ما هو أدنى.

ولست بالذى يُنكر التخطيط وأهميته، بل أنا داعيته، وإنما أرى أن تحوّل التخطيط إلى هاجس يولد وسوسة، فلربما ينشأ تعقيد تخطيطى بدل التقعيد، وحصوله ينفى السكينة الإيمانية والاسترسال البسيط فى موازاة الفطرة وتعمير مشاعر الحماسة ومقارعة الباطل، والمبالغة فى الاستئسار للتخطيط شأنها شأن كل مبالغة، إنما تصنف فى السلبيات وإن كان ظاهرها الإيجاب، وحركات الداعية وسكناته تحتاج شيئا من الحرية، والقرار الشخصى، وسرعة رد الفعل، وإلا تصبح حركة الداعية ميكانيكية مبرمجة سلفًا، بينما أفهم أن التخطيط

الصائب هو الذى يتيح خيارات عديدة يضعها بين يدى الداعية المنفذ؛ يختار منها ما يظن أنه الأليق الأصوب، ويتخذ قراره الخيارى فى يوم التنفيذ نفسه بناء على خارطة الواقع المتغير التى كان قد تدرب على قراءتها، وتكون عملية استعمال الخيارات أشبه بعملية التوافيق والتباديل الرياضية التى تتيح أشكالا لا نهائية من العلاقات بحسب الارتباط النسبى بين مفرداتها.

* **القاعدة السابعة:** تقييد المخططين بهدف «واقعى» ليس مطلق الصواب.

فقد كثرت دندنة المخططين حول وجوب أن يكون الهدف واقعيًّا متناسبًا مع المقدرة التنفيذية التى نملكها، وهم يعنون فى مجمل مرادهم: التواضع فى تحديد الهدف، ونحت الطموح الزائد، واللجوء إلى حساب شديد، بحيث تصرف جهدًا بمقدار الرصيد.

ولست أرى ذلك، وأنا أخالف هذه القاعدة التى ينقلها الدعاة من كتب التخطيط الغربى بنوع تقليد من غير اجتهاد، فإنما وضعت هذه القاعدة لأعمال الشركات التجارية والإدارات الحكومية، لا لمسيرات التغيير الشامل وصناعة الحياة وتحقيق الانعطافات الكبرى فى حياة الأمم، فإن تحويل الوجهة السياسية والاجتماعية يحتاج مقدارًا عظيمًا من الجرأة والطموح والمغامرة والإقدام على ارتكاب شبه المستحيل، وتاريخ الثورات والتبدلات الحضارية يدل على ذلك ويشهد لفهمى ويشير إلى صوابى.

وأنا أستند إلى ظاهرتين:

* ظاهرة إرخاء الفطرة لصاحبها عن كمال التنفيذ وتمامه، بل فى نفس كل شخص مكلف بأمر نداءٌ داخلى يغريه بالإبطاء بعد تجاوز مقدار النصف، فهو ينفذ، وبدأب ربما، لكنه إذا بلغ أكثر من النصف: تخدرت نفسه اللوامة عن الإلحاح عليه، ويأخذ يأمن ملامة الرئيس والقرين، فقد خرج عن حد التقصير. وأزعم أن أكثر البشر على مثل ذلك، مسلمهم وكافرهم، وإنما يتفاوتون فى مقدار الترك، وأوان بدء الانحلال، فمنهم المسرع إلى التسيب، ومنهم من يقارب الإجزال، ولذلك يجب أن نضع هدفًا أكبر من الممكن ليحصل الممكن، وإلا فلو ألزمت نفسك والأتباع بالممكن فقط لحصل دون الممكن، بضغط هذه الظاهرة النفسية التى أبصرتُها عبر طول مراقبة الحركة اليومية لمجموع الدعاة والناس عموما.

* وظاهرة تفجّر الطاقات المخبوءة في ساعات الحزم، وغليان الكوامن عند مقابلات التحدى، وتضاعف الأحاسيس يوم المفاصلة، وبلوغ النفس أقصى كرمها وبذلها وشجاعتها إذا وضح الهدف، وقد لاحظت الشعوب أن العواطف تستنزف كل المستقر في الأعماق إذا تأججت، وكل ذلك يعنى أننا بحاجة إلى هدف «واضح» لا هدف «واقعى»، والتجارب تتيح لى أن أسأل من يزعم وجوب الواقعية: من أخبرك أن ما تراه يوم الثبوت هو كل الموجود؟ وكيف تقيس مستويات الطاقة يوم التصعيد على مستواها يوم الراحة والغموض واسترخاء البطالة؟ وهل رأيت منثنيات التاريخ؟ وهل قارنت ما يسببه الوعى من عطاء إذا العقل بالبرهان والتحليل اقتنع؟ أو رأيت نفض القصيدة العصماء من وليدٍ أو أخيه للقلب إذا تطلع؟

وفى الانتفاضة الفلسطينية الثانية بخاصة أوضح دليل على حصول أضعاف ما توقعه أهل التخطيط لها، وكادت دعوى الواقعية أن تبيع الحوزة والتراث والآمال والمستقبل لولا اكتشاف نكاية الحجارة، فصار الشباب يتسابقون إلى الاستشهاد، والطموح يقود.

* **القاعدة الثامنة:** طلب الوحدة القلبية المعنوية بين الدعاة عبر الممارسة الشوروية.

ففوائد الشورى وبركاتها عديدة، وإنما نلحظ هنا أثرها التربوى الحسن فى توحيد القلوب وإحلال التحابّ بين المتشاورين، وهو أمر انتبه إليه الفخر الرازى قديمًا وبيَّن كيف أن من شأن المتشاورين أن يجتهد: (كل واحد منهم فى استخراج الوجه الأصلح فى تلك الواقعة، فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه فيها، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله، وهذا هو السر عند الاجتماع فى الصلوات، وهو السر فى أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد) [1].

ففى الممارسة الشورية هذا التدريب على تطابق أرواح الطبقة الريادية واقترابها من أن تكون روحًا واحدًا، وعقلاً مشتركًا، وذلك أساس بناء الآراء الجماعية.

وواضح أن اكتشاف هذا الأثر الإيجابى للشورى إنما حصل عن طريق الاستقراء، وتسجيل ملاحظة انضمت إليها ملاحظات مماثلة، على أسلوب اجتماع الشظايا، فسُجلت كظاهرة.

---

(1) تفسيره 9/ 54.

* **القاعدة التاسعة:** أن الفكر القويم مبتدأ الإصلاح.

فإن الفكر هو الذى يقود العمل، والأوهام تقود إلى فوضى أو طيش، أو دوران فى حلقة مفرغة دون نتيجة.

من شهادة التاريخ للفكر: التصورات الساذجة القاصرة التى استولت على علماء الشريعة وبعض الساسة المخلصين حين ألغى أتاتورك الخلافة، فتعالت صيحات فى العالم الإسلامى تطالب بإعلان خلافة بديلة فى بلد آخر، واشتدت الدعوة لعقد مؤتمر يتولى إعلان خليفة، ومنهم من انطلت عليه تطلعات ملك مصر فؤاد فرشحه للخلافة، لكن الفكر الصائب الذى كان يحمله شكيب أرسلان جعله ينكر ذلك الهراء، ويشير إلى الطريق الصحيح، طريق التربية والبدء من تحت، من تربية الفرد، ما أوردناه فى المنطلق، ثم هُدى الإمام البنا إلى طريق الاستدراك القويم.

ومن شهادة الوقائع للفكر: المتاهة التى دخلها الشباب المسلم المتحمس عبر التفجيرات وهواية إطلاق الرصاص على شرطى وسائح، وظنون بن لادن أنه ينهك أميركا ويركعها إذا آذاها، وهى خواطر تعتمد المبالغة والخيال الجامح، ولو حاز هؤلاء منهجية التفكير الصحيح وأتقنوا التحليل بعد رصد الأداء الحضارى والمدنى فى أميركا والعالم الغربى لتوقفوا عما هم فيه ولعرفوا أن المشروع الحضارى الإسلامى أجزل وعودًا وأكثر أملا، وهو بطىء؛ لكنه نافذ، وسلمى؛ لكنه حاسم، وأن الجهاد الدفاعى إنما يؤتى فى وقته بعد نضوج المقدمات والتطور المدنى والتمهيد التربوى، وقد لا نحتاج إليه إذا أدت جهودنا التطويرية للأمة الإسلامية إلى موقف شعبى واع موحد يتيح مطالبة متصلبة ملحاحة على تحصيل الحقوق وتتوسل بوسائل السياسة والإعلام واستصراخ قوى المعارضة الغربية لنصرتنا والضغط على بقية التوجهات الاستعمارية، ولا أستثنى من ذلك إلا قضية تحرير فلسطين، فإن الجهاد هو الطريق الوحيد فيها.

فهذه أمثلة تدلنا على الجهد المهدر العظيم الذى لو رصده أهله لخدمة المشروع الحضارى الإسلامى لكان خبرنا اليوم غير ما هو عليه، ولو أضفنا إلى ذلك ما سببه الفكر الواهم من ردود فعل غريبة زرعت الألغام فى طريق العمل الإسلامى العام لاتضح أكثر حجم التعويق.

لذلك فإن من منهجية التربية الدعوية الصحيحة: إيلاء عناية للفكر الإسلامى الصحيح، وترويجه، وتوسيع مداه، ورصد جهود بعض الدعاة له، فما هو بترف كما يظنه البعض ممن يدعون إلى التجرد للعمل والجهاد، بل هو ضرورة وأصل ومقدمة للعمل والجهاد، وإنما يُعرف الحق بالمقايسة، ونظرة سريعة إلى أدعياء التجرد للجهاد ترينا الفقر الفكرى المدقع عندهم مقارنة بالعمران الفكرى لدعاة المشروع الحضارى الإسلامى ووفرة الإنتاج فيه.

وهذه دروس تجريبية آن أن لا نترك الحياء وتأول سد الذرائع يحجزنا عن الصدع بها، فإن أذى الجهاد الموهوم قد تفاقم، وفى استمرار السكوت ضرر وإغراء لساذج أن يحالف الواهم.

وأنا أتساءل: يا ترى لو كان ابن لادن صرف عشرات ملايينه على تأسيس دور نشر للكتاب الإسلامى، ونشر الصحف ومجلات إسلامية عامة متخصصة، ومراكز بحوث وتطوير، وإنشاء جامعات ذات منهج إيمانى، وسلسلة مدارس عالية المستوى، ومواقع إنترنت، وإنتاج أفلام تخلد سِيَر المجاهدين، ورسوم متحركة نظيفة للأطفال، وتخريج ألف دكتور فى القانون الدولى والدستورى، والعلوم السياسية، والإعلام، والاقتصاد، والتاريخ، والفلسفة، وعلم الحضارات المقارن، إضافة للعلوم الشرعية والأدب والنقد الأدبى: كم كان الأداء الإسلامى العالمى سيتطور ويتقوى ويقترب من التأثير؟ لكن الفقر الفكرى يغرّ صاحبه ويحشره فى النفق الذى لا مخرج له!! وكل ما يقال عن الافتراء الاستعمارى صحيح، لكنه ما كان ليكن من فراغ، بل وجد عدو الإسلام مسلمين لا يحسنون التخطيط ولا يعرفون الوعى فاستدرجهم فاستُدرجوا، ولست أعنى ابن لادن هنا بذاته، فقد سبق السيف العَذَل، وما شاء الله كان ومضى، ولكنى أعنى مدرسته، وهذا النمط فى الفهم الناقص لمعنى الجهاد، وأمنية الصرف الواعى للمال إنما أتمناها لغنى متحمس أخاف أن يدخل نفقًا ثانيًا، فلعله يتعظ ويحالف دعاة الرد الحضارى الشامل، وليأت إلينا نعلمه تفاصيل الدرب الآمن.

*** القاعدة العاشرة:** أن الحوار بين الدعاة هو الذى يوقظ الأفكار، ليس الإملاء، ولا انفراد النوابغ.

فإن التعطل الفكرى وكبت الإبداع إما أن يتولد من نمط فى التصرف لدى بعض القادة يميلون معه إلى الإسراف فى منع النقاش، ويكون منهم تبرم من اعتراض وردّ، أو من محاكاة

لتصرف المريد الصوفى مع شيخه من الإسراف فى التأدب معه حتى يكون كالميت بين يدى الغاسل كما يعبّرون عن حالتهم، وفى الحالتين هناك هدم وتحطيم لشخصية التابع، واستئصال لجذور الإبداع فى أعماقه، وليس فى ذلك صواب يشفع، وإنما تنمو الرؤى والأفكار عبر التقابل وحرية القول والتدريب على النقد، ومنهجية التربية الدعوية فيها عقد مؤتمرات، وإقامة ندوات، لتمكين الداعية من أن يفصح عما يعتقد، فإن كان صوابًا وجد طريقًا لتنفيذ، أو كان من الخطأ: تبين له وجهه فانخلع عنه مبكرًا قبل تحوله بطول الوقت إلى رأى مستقر.

عشارية ترصد التوجهات التربوية الرئيسة

وهى توجهات نابعة من تركيب الشظايا التربوية أيضًا، أى أن أصل كل منها عدة ملاحظات تربوية صغيرة متقاربة المفاد، اجتمع بعضها إلى بعض فصارت تمثل توجهًا تربويًّا يشهد له الخبراء بالصواب والقبول.

* **التوجّه الأول:** إتقان استثمار ركن التدين فى النفس البشرية الذى يمنحنا عامل تفوّق دائم على الآخرين.

فالتدين فطرة مغروسة يدفع إلى صدق المشاركة وعمق الولاء وكثرة البذل، وهذه إنجازات تربوية يتكون منها نصف النجاح التربوى، ولا يمكن لغير المتدين أن يحصل من أتباعه على عشر معشارها أبدا، لأن صاحبنا يتعبّد بها، وغيره مجرّد متوافق كثير الشروط.

والمتدين ثابت على تدينه، وصاحب الرأى متبدل تعصف به الأهواء.

والتدين يفشو بين الناس وينتشر، وأهل الرأى أقل.

وإذ نحن حركة «دينية» فإن ذلك يعنى أن إيماننا قد منحنا إمكانية قيادة جمهور عريض من المؤمنين، وأننا كسبنا فى الحقيقة نصف المعركة قبل البدء، ولذلك فإن خطابنا السياسى العام يجب أن يفصح أيضًا عن هويته الدينية وموازينه القرآنية، وأن يكون ذلك ركنًا فى منهجية التربية السياسية الدعوية، ولا يسوغ التشبه بالأدب السياسى العلمانى فى زعمه التجرد من الغيبيات، وأقول ذلك لأن بعض الدعاة الذين تعاظمت مقادير مطالعاتهم السياسية والفكرية ورجحت على مقادير ثقافتهم الشرعية يقلدون الخطاب العلمانى مِن حيث لا

يشعرون ربما، ويجردونه من أصوله الإيمانية، ومنهم من يفعل ذلك عمدًا، تأولاً أن العلمانى أمهر من الدعاة فى صنعة السياسة، فيتشبه بألفاظهم ولغتهم وأساليبهم.

* **التوجه الثانى:** استيفاء الاستفادة من عطاء العالمية.

وعطاء العالمية وافر مبارك، لكننا لم نستثمره كله بعد، ولم نوظف حقائقه فى خدمة الدعوة، مع أنه عامل تفوق على الآخرين، فإنهم لا يملكون مثله، وهيهات اجتماعهم فى مقام الرجحان الإستراتيجى الدائم بإذن الله.

ففى العالمية حشد طاقات من العالم الإسلامى كله، لا العرب فقط، ولا العجم فقط، فأيما نجاح يصيبه جزء من الدعوة فى بلد من البلدان فى تربية داعية واحد بتربية عالية المستوى متطورة يعتبر إضافة حقيقية للرصيد فى البلاد الأخرى كلها، لأنه سيكون عامل إسناد وضغط ودعاية، ويمكنه أن يقدم خبرة تخصصية أو فكرًا أو مالاً، وأقل ذلك أنه جزء فى تكوين الصورة المهابة.

وفى العالمية أمن وبدائل واحتياط، فإن الظلم إن منع عربيًّا من جهر بالحق أو تنفيذ لواجب: فإن عجميًّا سيتصدى للتعويض والوكالة وإبقاء الجذوة، ولن تضيق الأرض بأحد مع سعة الانتشار، وهذه قضية فلسطين عادت إسلامية عامة بعد ضيق تعريبها، ويتظاهر لتوضيح حقها أحرار فى جكارتا فى مسيرة طولها أربعة عشر كيلومترا، وينتهى جهل أهل مدارس التأميل بها بما يكتب دعاة سريلانكا بالتاميلية فى شرحها، فيروج فى جنوب الهند، ثم فى السنغال وسيراليون والكاميرون قول رصين يتطابق مع نشيد فى تترستان بسيبريا يغنيه منتفض خاطوا لسانه مائتى سنة كاملة.

وبالعالمية يتحول الصعب الذى فى المشاريع الكبرى إلى سهل بإذن الله، لما فيها من تعاون وتوزيع للثقل.

* **التوجه الثالث:** كسر القوقعة والخروج إلى الحياة الفسيحة.

فإن التنافس يحدونا إلى تفاعل اجتماعى واسع. وبالأخص: التعاون مع مستقلين يصعب ضمهم إلى الصف لأسباب شتى، لكنهم من أهل الخير أو الخبرة أو الوجاهة، وكثير منهم من بقايا الأحزاب المندرسة التى أنهكها الزمن فمال بعض ناشطيها إلى التوبة مما سلف منهم

وأيقنوا -إذ أفلست أحزابهم وقياداتهم وأفكارهم- أن الزمن القادم محكور للدعوة الإسلامية، واستيعابنا لهم يقتضى أن ننفتح نفسيًّا أولاً، وأن نضيف إلى أخلاقنا رفقًا وسماحة ولمسة حنان، وأن نتذكر مشاهد فى السيرة النبوية المطهرة تحول فيها صناديد الكفر إلى أركان فى خطط الجهاد، مثل إسلام خالد وعكرمة رضي الله عنهما ، وينبغى أن نعلم أن تحقيق الكتلة البشرية الضخمة هو أحد الأهداف الإستراتيجية فى الخُطة الدعوية، وهذا الانفتاح الاجتماعى هو وسيلة رئيسة لحصول ذلك.

وما من شك فى أن أصل ابتناء العمل الدعوى إنما كان ويكون على مخالطة الناس من أجل إصلاحهم، ولذلك لا يليق مبدأ العزلة الصوفى لداعية أبدًا، لكن هذا لا ينفى ما ركنت إليه التربية الدعوية من اللجوء إلى بعض العزلة من أجل مراجعة النفس والاستدراك والمحاسبة والاكتيال من خواطر الخير المعينة على جولة أخرى من مخالطة الناس. وكنا نحسب ذلك من مفاد التجريب، حتى اكتشفنا أنها وصية عمرية قديمة.

قال ابن حجر: «قال ابن المبارك فى كتاب الرقائق: عن شعبة عن خُبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم قال: قال عمر: خذوا حظكم من العزلة» (1).

أما العزلة المذكورة فى حديث البخارى: «يأتى على الناس زمان خيرُ مال المسلم: الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر»، فهى ما يكون زمن الفتن العامة وفى آخر الزمان، كما شرحه ابن حجر فقال: (لفظه هنا صريح فى أن المراد بخيرية العزلة أن تقع فى آخر الزمان، وأما زمنه رضي الله عنه فكان الجهاد فيه مطلوبا، حتى كان يجب على الأعيان إذا خرج الرسول ﷺ غازيًا أن يخرجوا معه، إلا من كان معذورًا. وأما مِن بعده فيختلف ذلك باختلاف الأحوال)، وفى لفظ الخطابى أن تفضيل العزلة أو الاختلاط (يختلف باختلاف متعلقاتها) (2).

ومن اختلاف الأحوال: كون المرء داعية يتحرق على مصائب المسلمين ويسعى نحو تحصيل العزة لأمة الإسلام، فيلزمه الاختلاط ويحتكر الفضل بذلك، أو يكون بارد الفؤاد من أهل العقول المستريحة والهموم الفردية، فتليق له العزلة، ويكون قد كف شره عن الناس، ولم

(1) فتح البارى 14/ 114.
(2) فتح البارى 14/ 116.

يكثر سواد اللاغين المشاغبين، ولم ينطق بسوء يؤذى الدعاة، أما الداعية فإنه مصلح يخالط ويُصافح.

* **التوجه الرابع:** اليقين بأن تحقيق العمق التربوى هو الإنجاز الأعظم الذى يقاس به مدى نجاح الدعوة.

لا النجاح السياسى مهما حرصنا على امتلاك الساحة السياسية ومهما نجحنا فى ذلك، لأن السياسة تستهلك من رصيد الممارس أشياء كثيرة، والتفاعل الاجتماعى ينحت من الطاقة، وجمهورنا قد ينقلب علينا بخطأ أو دعاية مضادة، كما انفض كثير من الأتراك من حول أربكان لما اعتقلت الحكومة عبد الله أوجلان، ولذلك يجب أن لا نتوغل فى السياسة من دون توغل فى تحقيق إنجاز تربوى عميق، وذلك ركن فى منهجية التربية الدعوية، فإنها تقيم من نفسها رقيبًا على المسار السياسى الدعوى، تكبح جماحه إذا أسرع فتخطاها وتقدم عليها.

وروى الرواة عن الإمام البنا فى آخر حياته أنه عاتب إخوانه فقال: شغلتمونى بالمقابلات السياسية عن العامل الميكانيكى ذى اليد التى سوّدها الزيت ودخان الآلة!!

لأنه يعلم أن السياسة سجال، فإن اكفهرت الأيام وغلب منافس فإن العامل المتجرد الذى امتلأ إيمانًا ووعيًا يكون أقدر على قيادة التراجع ثم الاستئناف فى الوقت المناسب من مؤمن مترف، وقد أقررنا التكامل بينهما من قبل، لكن التكامل لا ينفى التفاضل النسبى، وكلًّا وعد الله الحسنى.

* **التوجه الخامس:** تربية الدعاة على قبول التعامل مع الحليف.

وهى تربية نفسية ومداراة معنوية، ينبغى أن تتكيف لها عقول وأرواح الدعاة عبر إيحاءات وعلاج عاطفى ومنطق فقهى وواقعى، وسبب ذلك أن تربية التأسيس علمت الدعاة التحليق الأخلاقى العالى، والمكوث مع مشاعر العزة والعفاف، والصرامة وفرط الجد فى كل شأنهم، ونقاء السريرة، وكمال الأدب، وليس كذلك الحليف مهما كان مقتربًا، فإذا جمع التحالف الدعاة مع غيرهم: استوحشوا مما هنالك من قول جزاف وسلوك لم يألف الدعاة مثله، فيكون تباعد قلبى، ربما، وإن جمعت مصلحة الأمة الطرفين، وسبب ذلك أن الدعاة عاشوا فى بيئة خاصة، واتخذوا استقلال العمل خُطة وديدنا، فاعتادوا ذلك، وتولدت عندهم

حساسية مفرطة من مخالطة الأغيار والمشاركة مع الغرباء عن مفاهيمهم وطباعهم، ولكن الانفتاح والعمل السياسى المتقدم يقتضى المناورة، والرضا بمخلص لم يقتبس من استقامة صفوف الصلاة مغزاها، لأنه لم يقف فيها طويلا، وذلك يقتضى التحالف، أو ما دونه من تعاون وتنسيق، ولو ضغط الدعاة على أنفسهم لأوشك صبرهم على ما لا يألفون أن ينفد، ولذلك كان من تمام ممارسة السياسة أن تسبقها وتقارنها منهجية خاصة فى التربية على التعامل مع الحليف والأقل شرًّا، ومصافحة المخلص الصلف، وما أصعب ذلك على مهذب لاهج بقول الفقهاء يفتأ يتشبه بالملائكة، والتفهيم وشرح أحكام المصالح وعرض المعادلات السياسية ومقتضياتها: أمور يلين معها الدعاة إزاء ضرورات التحالف أو التعاون، وتربية كسر القوقعة الآنفة الذكر تساعد على ذلك إن شاء الله.

* **التوجه السادس:** الالتقاء مع حاجة الناس.

فإنها أقوى المحركات الدافعة إلى الولاء، وفى الخدمات البيئية والترميمات الإصلاحية التى قدمتها جبهة الإنقاذ فى الجزائر قبل الانتخابات البلدية التى فازوا بها دليل وشاهد، فإن الناس تفتش عن المخلص الذى يرعى حاجتها، وآذاها سلوك السارقين والوصوليين ودجل المنتفعين من الأزمات والحروب الأهلية، وتستفزها أخبار الفساد الإدارى فى دول عريقة لكنها أصبحت مترهلة، والدعاة هم الذين يرشحهم القدَر اليوم لتخفيف متاعب المستضعفين وقيادتهم عبر الخدمات المخلصة وضرب مثال التجرد والنجدة والإغاثة، وليس هذا من باب الربط المصلحى الذى ينكره بعض فقهاء الدعوة، وإنما هو من باب «كسر الحاجز» الذى أقامه الفسقة بين الناس وبيننا، إذ ينتظر الموالون لنا بعد ذلك خيرًا تربويًّا كثيرًا ومنهجية تربوية عريضة، وفقهًا شرعيًّا نرويه لهم وخبرَ صدق عن الأولين والآخرين، ولكن الجناة عزلوهم بالوشاية والإعلام الماجن عن مقاربة الدعاة، واخترعوا لهم قصص الأشباح، فإذا أريناهم اليد النظيفة غير الملوثة أوشكوا أن يعودوا إلى رُشد واستئناس برحمة إيمانية حبانا الله بها ما وجدوها عند همّاز ونهّاز.

* **التوجه السابع:** استثمارنا لنقطة ضعف أتباع النظام العالمى الجديد.

فإن الإمّعات قد استطابوا التبعية؛ لما تجلبه من حماية لهم، ولكن الأرض تميد، والشعوب رافضة، وفى رجال الإعلام وأساتذة الجامعات وخبراء مراكز الدراسات الإستراتيجية من

يتكلم بكلام جيّد فى تعرية التوجّه الأميركى واليهودى وما هم بدعاة، ولا كل منطلقاتهم إسلامية، ولكن معانيهم تلتقى مع فهمنا ونوع خطابنا، بل هم أمهر منا فى كثير من قولهم، وتتاح لهم صراحة نتحاشاها بسبب عنف ردود الفعل التى نتوقعها، وتولد من ذلك تيار عام في الناس من كراهية الهيمنة وازدراء فكرة صراع الحضارات، ولكن هذا الوعى الشعبى لا يوازيه عمل حزبى، فقد أفلست الأحزاب العلمانية، ولذلك فإنها أعجز من أن تقود التيار المتأجج، بينما تزداد الدعوة الإسلامية عمرانًا بحمد الله، وتطورًا، وتخصصاً، وهى مؤهلة اليوم لقيادة الرافضين واستثمار الفراغ القيادى فى الأمة، وينتظرها نجاح عظيم إذا قدمت نفسها للناس، وكلمة التقديم سهلة فى اللسان، ولكن معناها التام تترجمه منهجية تربوية متنوعة الأساليب، فيها تفقيه وتوعية، ومقارنات تاريخية، وقصائد شعر وأدب، ومداخل نفسية مناسبة، ولكن يلزمها فى المحيط الداخلى أيضًا تطوير للقابليات وتدريب قيادى وثقافة مناسبة للأداء المبتغى مع تأسيس أجهزة خلفية للإمداد بالرأى والرصد، يمكن أن ينفذها المهاجرون إلى البلاد الآمنة.

* **التوجه الثامن:** المؤتمرات الفكرية القيادية ضرورة موازية لتدابير الإدارة.

لأن دولاب العمل اليومى الدائر بلا توقف يستهلك القيادات فى المتابعة والتوجيه وحل الإشكالات الطارئة، فيجد القيادى نفسه بعد حين فى دوامة لا يستطيع الفكاك منها، ويصير مستهلكًا لرصيده، لا ينمو فكريًّا رغم إنضاج التجربة له، لكن الفكر يحتاج إلى اجتهاد دائم وتجديد مستمر، والحوار وسيلة أساسية فى ذلك، ولابد أن تنقذ الفئة القيادية نفسها كل موسم مرة على الأقل؛ فتلجأ إلى عقد مؤتمر فكرى نقدى يتعالى على اليوميات والتنفيذ والطلبات والمشاكل؛ ليبصر الكليات ومنابع الرأى والتأملات الحرة والمكتشفات الفقهية المستجدة والتطلعات المستقبلية، ويدار خلال ذلك حوار حُر يهدف إلى تطوير المنهجية التربوية ومنهجية الأداء السياسى والاجتماعى، وتطوير الخطط بما يناسب الآراء المنقدحة، ولربما يلوح للقائد من المعانى الإبداعية غير المسبوقة شىء يجعله يتحمس له ويندفع، فينبغى عندئذ أن نتيح له مجال إقناع إخوانه بتوجهه الطارف ومحاولة تجريب طرائقه المبتكرة، فإن القائد ليس آلة ميكانيكية تأسره الخطة أسرًا شديدًا لا تململ معه، أو تأسره تصويتات إخوانه فى كل شىء ولعًا بشورى ذات إسراف، بل يليق لنا أن نستمتع باجتهاده إن كان مجتهدًا، وأن نفك أسره أحيانًا، إذ الإبداع لا يتكرر مع راسفٍ فى أغلال الشروط.

* **التوجه التاسع:** تعريف الأجزاء الأعجمية من الدعوة.

لأن القرآن عربى، والحديث عربى، والفقه عربى، ومعظم الفكر الإسلامى المعاصر عربى، وأكثر فقه الدعوة والسياسة عربى، ولا تبلغ الترجمات فى نقل المعانى بوفاء مبلغ الفهم المباشر من النص العربى، كما أن حركة الترجمة لا تواكب الحاجة الدعوية الحقيقية التى تفرضها الخطط والمناهج التربوية، وإنما تتحكم بها النظرات التجارية للناشرين، وربما تكون بعض الترجمات ركيكة، أو لا تفهم سر التعابير الدعوية تمامًا، أو يجردها المترجم من العاطفة والبلاغة التى فيها لضعف مستواه اللغوى أو لعجلته، بل وربما يحصل تحريف. كما أن الدعاة لا يستطيعون مواكبة جميع المد الفكرى العربى اللغة؛ لكثرة الكتب والصحف، والحل يكمن فى اتخاذ خطوة تخطيطية جريئة بتعريب الدعاة ما أمكن، وتوكيل مؤسسة بذلك، وتبادل التجارب ومناهج تدريس اللغة العربية، وذلك فن فيه تفصيل كثير ليس هذا مكان إيراده، وإنما يستعان بالخبراء وبالوسائل التعليمية الحديثة ومناهج جامعة الإمام ابن سعود أو طريقة الأستاذ خليل الأيوبى، مع الاستعانة بالكمبيوتر، ومخالطة العرب، وسماع أشرطة خطب فصحاء الدعاة.

* **التوجه العاشر:** إتقان صنعة إشاعة الحُبّ فى الله.

فإن التوجهات التسعة كلها ذات مسحة صارمة، وتحتاج دأبًا وسهرًا وسفرًا، حتى يعترى الداعية الإرهاق، ومع الأيام تتراكب الأحمال حتى تكون ثقيلة، فيكون نوع ضجر وتوتر أعصاب قد يؤدى إلى زلل لسان الداعية بلفظ نابٍ أو تصرف جافٍ يكسر قلب المؤاخى الصافى أو المقترب الهافى، فتنبغ موعظة صيانة الحب تدعو إلى مداراة واحتياط، تخاطب المرهق أن يزداد صبرا، ويُبدى حلما، ويمنحُ حبا.

وقد روى الأستاذ الدكتور سعيد رمضان عن رجل كبير مارس الدعوة إلى الله سنين طويلة أنه قال له: «يبدو أن أكثر دعاة الإسلام قد تخلفوا عن أداء مهمة هى أخص مهامهم، وأن تخلفهم عن أداء هذه المهمة هو السبب الأول وراء كل مشكلة تعترض ركب الدعوة وكل عَثر يقع فيها... هذه المهمة هى إشاعة الحب بين القلوب، إنه كما يختص كل أستاذ بمادة يحسنها ولا يضيره ألَّا يحسن سواها، فكذلك الداعى إلى الله يختص بمادةالحب: حب الله

وتوثيق عرى المحبة بين القلوب... ولا يضيره كثيرًا إن هو نجح فى مادته أن يقصر فيما سواها؛ لأنه حينئذ يكون قد أرسى الأساس الراسخ فى أعماق النفوس، وهيأ المنبت الصالح لكل الفضائل، وأقام الحصن المنيع دون أكثر الفتن».

فعقّب ﷾ على قول محدثه وقال:

«هذا قول حق، ودعاة الإسلام جميعًا فى حاجة إلى أن يتدبروه ويطيلوا الوقوف عنده، وأن يحاسبوا أنفسهم»!

إن كلمة «الحب» هذه، والتى ظلمها الناس، هى الكلمة الكبيرة التى اتسمت بها مواكب الأنبياء وقامت عليها مجتمعاتهم، وهى «الإكسير» الذى جعل صلة أتباعهم بالخير صلة حقيقية تستعذب فى سبيله العذاب، كما جعل آصرتهم فيما بينهم آصرة الروح من وراء العقل؛ فلا تختلف باختلاف الرأى، وفوق المصالح المادية؛ فلا تتأثر بهوى خاص.

وإنك لتقرأ القرآن فتطالع مصداق ذلك وتجد مكان هذا الحب أصيلا... تجده فى مقام الدعوة هو الوازع الذى تستثيره السماء والغاية التى تلفت إليها القلوب: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:31]، وتجده فى وصف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، ونجده فى وصف ما بينهم وبين ربهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:54]، وتجده فى الحديث عن الخير والشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة] و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة]، وتجده فى صلة المؤمن بالمؤمن نعمة مزجاة يمتن بها الله على عباده مرتين فى آية واحدة: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:103].

* **وبعد:** فجميع هذه التوجهات إنما كانت فى أولها خاطرات وملاحظات جزئية وشظايا، فانضاف بعضها إلى بعض، فتولد توجّه بعد توجّه، يعلم كل منها بعض صنعة المنهجية التربوية، وهى أمثلة لتركيب الشظايا الذى جعلناه أحد أساليب اكتشاف المنهجية الصحيحة عن طريق جرد ومسح النقد التربوى العفوى اليومى وتجميعه فى صورة قواعد ووصايا وتوجهات.

والاستثمار الصحيح لهذه التوجهات أن يعكسها القياديون على الخطط التربوية والعامة بشكل مباشر، بأن يستعرض بعضهم فى كل بلد هذا الفصل وأمثاله، فيستخرج من كل بضعة أسطر ملاحظة يحولها إلى مادة أو بند فى الخطة، تكون ملزمة بعد تصديق القيادة وإقرارها للمذهب الذى تنصح به الملاحظات، وهكذا عن طريق تغذية الخطط بمستلات من آراء نقاد التربية الدعوية الذين ذكرنا بعض أسمائهم آنفًا وعبر استعراض وجرد مؤلفاتهم ونصائحهم: تنمو الخطط التربوية الدعوية، وتستقر توجهاتها المنهجية، وليست هذه الاقتباسات والاستعارات من كلامهم بأقل شأنا من كلامهم نفسه، ولا هى بأمر سهل، وإنما تستند إلى تجربة تنفيذية عميقة عند ممارسى التربية والتدريب فى كل قطر، ولذلك لا ينبغى الزهد بها، بل النظر إليها على أنها جهد تربوى مكمل لعملية النقد التربوى التى يقوم بها المؤلفون، وأنها الإجراء التطبيقى لآراء ستظل عائمة إن لم تتداركها اللمسات التنفيذية، فهى لذلك حلقة الوصل ومختبر الكشف ومعيار الواقعية، وتجاربنا تفيد بأن تنفيذ وصايا المنظرين التربويين يشكِّل خبرة خاصة متميزة عن علم التربية نفسه، وإنزال النظر على الواقع إنما هو صنعة خاصة يكون التنفيذى فيها أمهر من المفكر المجتهد المقترح، ربما.

ألفية ابن سالك فى النحو التربوى التركيبى!

وعلى غرار ما وجدنا أنفسنا عليه آنفا من تشكيل القواعد والتوجهات التربوية عن طريق تركيب الشظايا: يمكننا أن نستطرد ونستمر فى هذا العمل الممتع اللذيذ، والتنادى لتجميع ألف ملاحظة تربوية تكون مادة أولية لتركيب مائة قاعدة، وأنا أتطوع هنا لذكر عشرات من هذه الملاحظات التى انتبهت لها عبر تأمل، أو كانت جوابًا منى لسؤال تلميذ سألنى، أو ابتنت على قصة وقعت لى. وفى ثنايا الفصول الأخرى من كتابى هذا عشرات شظايا أخرى غير مستثمرة بعد فى تقعيد، وبذلك ترتفع مساهمتى إلى مائة ملاحظة أو تزيد، وواجب التربويين التقاط مثيلاتها من مائة كتاب فى التربية الدعوية أو التربية الإسلامية العامة ليبلغوا بها الألف، ويخترعوا من بعض معانيها المتقاربة موادَّ جديدة فى الخطط التربوية، فإذا أتقنوا ذلك: كان عملهم من أوضح الأدلة على أن تربيتنا تتعالى على الارتجال، وأن رهط التربويين فى الدعوة يسلك سلوكًا منهجيًّا صحيحا.

فمن ذلك، مما رأيته فاستحسنته، أوحدث لى، أو أجبت به:

* ما يجرى من ابتكار فى إندونيسيا من تنسيب شيخ شرعى لكل أسرة أو مجموعة من الأسر، ليشيع بينهم الفقه ويعوض نقص النقيب. وهذا استدراك جيد صالح للتعميم فى بلاد أخرى، فإن الجماعة تعمل فى محيط مدنى معقد وتجابه ظروفًا سياسية تحتاج إلى تعامل معها فيه مهارة ومرونة، وربما كان الداعية المهندس أو الطبيب أو المحامى أو العامل أقدر على المناورة والإدارة والتوعية، فيكون هو النقيب، رغم ضعف حصيلته الشرعية، فيكون تكميل النقص من خلال وجود الشيخ معهم، يتكلم ويوضح الغوامض ويفتى، ولسنا نجد شيخًا لكل أسرة، لقلّة عدد الشيوخ، ولكن نسدد ونقارب، بمرور الشيخ الواحد على أسر عديدة، وعطاؤه عبر المخالطة فى الوقت الحُر خارج الاجتماع ربما يكون أكثر.

* وفى إندونيسيا أيضا طريقة حسنة من خروج كل أسرتين أو ثلاث فى مخيم تربوى صغير، وهذا أسهل وآمن وأقل جهدًا وكلفة وأكثر قابلية للتكرار، وليس غير التقليد يجعل الدعاة يلحّون على عقد المخيمات الواسعة رغم شبهات تحيط بها نحن منها براء، وابتكار التصغير إبداع يليق أن ينتشر.

* وسمعت شيئا فى ماليزيا صعقنى حين قال رئيس لجنة التربية: نحن نعتنى بالتربية فقط، وأما استثمار جهود الدعاة فى الاتصال بالناس فمنوط بجمعية معينة. وهذا يعنى عدم استيعاب كيفية جريان عملية التبشير بالدعوة، فإن نشر الدعوة عبر الوسائل العامة يمكن أن تقوم به جمعية أو لجنة خاصة، من تأليف كتب، وتوزيع أشرطة، وإقامة حفلات ومهرجانات، ولكن عملية تحريك الداعية يوميًّا لتبليغ الدعوة فى محيطه الطبيعى وتربية المؤيدين فإنها ضمن التربية، وتكون بإدارة محلية، ونمط تجريد التربية من محتواها العملى فى التبشير نمط لا نعرفه، لأن كل بيئة صغيرة، من مدرسة أو قرية أو مجتمع مسجدى خاص: لها دقائق تفصيلية يعرفها من يعيش فيها، ثم الأقرب، فى الدائرة الاجتماعية المحلية المحدودة، وأما إحالة ذلك إلى رقابة مركزية ففيه تضييع وتعامل مطلق لا يراعى النسبية والخصوصية التى يراعيها النقباء، ويتعرض الأمر لحصول اختلاطات من أنواع شتى ومداخلات ليس من السهل حل تشابكها.

* ومن المفترض أن نقوم فى كل قطر باستثمار طويل الأجل فى صورة عناية بالأطفال والناشئة عبر ثلاث خُطط متتالية تتولى الأخوات الثقل التنفيذى فى الأوليين: للأطفال الصغار من سن الرابعة حتى السابعة، يتعلمون خلالها النظام والانضباط والنظافة والعيش المشترك وأوليات الإبداع، مع حفظ شىء من القرآن والحديث والأناشيد والصيحات. ثم خطة ثانية لمن هم فى بداية السنة الثامنة حتى نهاية العاشرة من المميزين، يتعلمون خلالها مكارم الأخلاق وبعض الفصاحة والاصطلاحات، والحوار، ومرحلة أخرى فى الإبداع، مع حفظ وأناشيد وهتاف. ثم خطة ثالثة لمن فوق العاشرة إلى الخامسة عشر بإدارة الرجال وانفصال عن البنات إلى إدارة الأخوات يكون فيها عمل كشفى وتدريب رياضى ورحلات وإبداعيات وأوليات فكرية، مع استمرار الحفظ والمطالعة والحوار. وبذلك يكون تفوق هذه العناصر من أبناء الدعاة والمصلين على أقرانهم المتسيبين، ونكسب بهم المستقبل، وفى مفردات مناهج المراحل الثلاث تنويع كثير جدًّا ليس هنا محل إيراده، والمجرب يفيض على الجديد، وما من شك فى أن قضايا الميكانيك والإلكترونيات والكمبيوتر والفن والإبداع والرياضة هى مجامع رئيسة إضافة للجانب الشرعى والأخلاقى، وكثير من طاقات الدعاة المعطلة يمكن أن تجد لها مجال تصريف فى هذه الأبواب من العمل السهل المبارك، والأيام تمر سريعة، **ولقد يقال:** إن عشر سنوات مضت ولست تشعر إلا كمن أغمض عينيه ثم فتحهما، وهذا النوع من التفكير الإستراتيجى يشكل شطرًا من منهجية التربية الدعوية المبكرة مع بساطة ما هنالك واستخدام طاقات مهدرة أصلاً قد تغزوها الوسوسة إن لم تفتح لها هذا الباب من التشغيل.

* وأرى فى الفكر وجهًا من الامتلاء النفسى وإشباع ضرورة فطرية، وهو جزء من الاستقرار، ويدفع القلق، ويميل بالناس إلى الهدوء والسكينة، ثم هو نعم السلوة للحزين،والتشجيع للخائف، ويكون بديلاً عن المربى والقرين، وزميلا للعصامى المنقطع، والصاعد المنفرد، وهذه من منح الفكر التى يغفل عنها المربى أحيانًا، ولذلك ينبغى أن يتصدر الفكر قائمة المنهجيات الأساسية، وأن يكون شىء من العناية المضاعفة به، وواهم من يزعم أن المنحى العملى المجرد أولى، وأكثر إغرابا منه من يعيش على هامش الأحداث السياسية يكتفى بمراقبتها وسماع الأخبار، وكأن الحياة ليست أكثر من فيلم سينمائى يشاهده، بل نحن جزء من المشهد، والفكر قائد.

* وأرى بعض تصرفنا التربوى ليس أكثر من ردود فعل فيها مداراة خطر داهم يستفزنا، والصواب أن تكون تربيتنا ذات مبادرات، وفيها شمول، وتستند إلى تأصيل، وعندئذ يكون هناك ما يكبت التحرش تلقائيا ويولد يقظة دائمة، ويتحول الأمر من ارتجال تفرضه ردات الفعل إلى تخطيط بعيد النظر، ونحن بحاجة إلى أن نصنع الحدث، ونصف لأنفسنا مشروعًا ونشرع فى إنشائه من نقطة الصفر، فإذا انفلق وتطاول وضرب فى العمق جذره: أعقبناه بمشروع آخر نبنيه من مستوى العدم، حتى تعلو سلسلة الأعمال منائر فى أفق مدينة الأعمال الدعوية التى كانت أرضها صحراء قبل أن تلمسها يد الدعاة، ولكن المدن يجب أن تخضع لنظرية معمارية واحدة تجانس بين الأركان والمركز وتضفى طابعا متناغما، وكذلك المنهجية التربوية هى إذا أحسنت أداء مهمتها.

* والربط التربوى بين المربى وتلامذته ينبغى أن يكون أمينًا، محققًا لمعنى الاقتداء، وتحكمه نية التعبّد، ولكن بعض المربين يذهلون فى ساعات الغفلة فيستروحون لربط خاطئ: كأن يربطهم عن طريق الخدمات وسد الحاجات، وهذه رشوة أو شراء وما هى بتربية، والإغاثة تكون عامة فى ساعة العسرة وليست خاصة، ولم نرصد هذا الخطأ فى أيام التأسيس والمراحل الوسطى، وإنما يحتمل أن يكون منه شىء فى أيام التوسع والمراحل المتقدمة حيث تضعف الرقابة التربوية المركزية، ربما، وهذا غير تأليف القلوب الذى يكون التعامل فيه مع رجال خارج الصف.

وكأن يربطهم بكشف الأسرار لهم، لما فيها من لذة وغرابة وإثارة للفضول، وهذا كسب ولاء شخصى لا دعوى عام.

أو يعلمهم طريق الطاعة العمياء، والجندية الصارمة، ويوهمهم أن الخصوصية الدعوية تقتضى ذلك، وليس الأمر كما يقول، بل الطاعة عندنا واعية، وندرب التابع على الحوار بالحسنى وعلى الاجتهاد ونبذ التقليد.

* وكيف يتم الجميع بين الحزم الواجب ووجود داعية مكلف بعمل له تفريط فى أداء عمله المنوط به؟

* الجواب يكمن فى أن الأصل قول الحق ورعاية مصلحة الدعوة، وذلك ما يوجبه الحزم، ولكن بالحسنى، وبسد الذرائع المؤدية إلى مفاسد، وهذا يحصل بأن لا نعزله من أول موسم

يستلم فيه مهمته، إذ ربما هو فى مرحلة إرساء أسس عمله، وأنه مثل غارس نبتة لم يظهر بعد ثمرها، وإنما نحاسبه بعد مرور موسمين.

* وباللفظ الرقيق لا بالتعنيف المجفل والنقد الجارح القاتل لهمته.

* وبإيجاد بديل لعمله هو أليق به، فيكون كأنه المنقول إلى عمل آخر وليس بالمطرود.

* ثم بعد إعذار وإنذار وتنبيه، ليس فجأة.

* واستظرفت مشروعًا يقوم به داعية تربوى لتسجيل كلام قادة الدعوة ومخضرمى الدعاة والمشاهير والمفكرين والفقهاء بالصوت والصورة، يستفزه أن الكثير من وجوه الدعوة ماتوا ولم يخلفوا أثرًا يعرّف الأجيال اللاحقة بهم وبفضلهم ورؤاهم الدعوية، فيريد أن يضع مكتبة بصرية سمعية فى خدمة الخطة التربوية تعتمد وصايا المشاهير وسيرهم الذاتية. وهذا عمل جيد مبتكر يرفع مستوى التأثير التربوى، ويملأ الدعاة الجدد عاطفة ويقوّى عرق الانتساب فيهم ويعمق الولاء وروح الأمانة فى وراثة الروّاد والتذكير بدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر]، وكلما تقادم عهد هذه التسجيلات ازدادت أهمية، والمفروض أن تعم العملية جميع البلاد فى كل العالم، ثم تجمع فى مركز، ثم توزع النسخ ثانية فى الآفاق ليستخدمها نقباء التربية. وفى فحوى الفكرة دليل على أن المؤثرات التربوية أوسع من أن تكون كتبًا يسميها المنهج، وأن المنهجية التربوية بحاجة إلى ابتكار وتوسيع ولمسات إبداعية.

* وقرأت للمَقَّرِىِّ قوله فى أزهار الرياض: إن «الإنسان مغرمٌ ببُنَيّات أفكاره»، فنبهنى بذلك إلى سلوك تربوى يجب علينا إزاء صاعد يجرّب ويتشبه ويحاكى ويحاول القول، فيصيب ويعثر، ويوضح ويبهم: أن لا نصدمه ونقتل روح الإبداع فيه، لأنه مغرم ببُنَيّات أفكاره، يفرح بها ويريد أن يحقق بها شيئًا من ذاته الخاصة ويكتسب هوية مميزة، فلمسة الرفق فى بيان وهمه واجبة، ومنطق الإقناع الهادئ معه أولى من تعنيف يتعصب بعده لما يراه، وليس هذا الرفق يكون إزاء كتابة فقط، بل تجاه اقتراحاته أيضًا، وخياله الجامح إذا تجرأ فباح به لأقرانه.

* ويلاقى كلام بعض الدعاة رواجا، ويستقبله المجتمع الدعوى استقبالا حسنًا يغرى المتكلم بتقديم مزيد، ويستجيب لكل تشجيع، حتى يتوغل عميقًا، والتجربة تنصح هذا

ببعض إبطاء، وأن يكبح جماح الصعود المستمر، تفاديًا لحسد الأقران وأهل المكانة الذين سبقوه؛ لأن النفس الإنسانية هى النفس، ولربما تمكن الشيطان أن يلقى همسة فى قلب داعية وافر الفضل ملىء اليد بالخير فتقلقه جدًّا ويغار، وما كنت أفقه هذا المعنى قديما، وآخذ الأمور على ظواهرها بتبسيط، حتى دلنى عليه عمر أبو جبارة ﷾ ، وكان أعقل منى، ففهمت منه بعض سر الحياة، وعلمت أن التألق ربما يؤدى إلى احتراق.

* **ومن ظواهر الحياة الإسلامية المرصودة:** أن الفقهاء حين يستلذون العلم والمعيشة بين الكتب تقل تدريجيًّا أوقات مخالطتهم الاجتماعية، **ويظل أحدهم يردد:** إن خير جليس فى الأنام كتاب. حتى تستولى عليه العزلة ويستوحش من الناس ولا يصبر على لأواء تربيتهم وإصلاحهم، فيقود الناس الدراويش والغلاة وأنصاف الفقهاء، وذلك أحد أسباب الترديات فى أحوال العالم الإسلامى. ومثل هذه الظاهرة يمكن أن تحدث مصغرة فى الحياة الدعوية أيضًا، إذا انزوى ثقات الدعاة ومجربيهم وأهل العلم والتخصص منهم، فيتقدم أهل شهوة الكلام ويتصدر أنصاف الدعاة من غير تصدير ولا انتخاب ولا إقرار، ولكن بإتقان المخالطة والتقرب ودغدغة المشاعر وبيع المدح والإطراء لكل راغب بالشراء، مما يحملنا على توصية القيادات ووجوه الدعوة أن يوازنوا بين الأعمال الإدارية وواجبهم فى مخالطة طبقات الدعاة والقرب من الحياة اليومية للدعاة، لئلا يحدث الفراغ الذى يحتله متطلع، وهذا أحد أسباب تفضيلنا ظهور بعض الزعامات الدعوية والقدوات التربوية، وعلى لجنة التربية أن تعلم أن التربية ليست هى تدريس كتب فقط أو وعظها لدعاة يقومون الليل، وإنما هى الحضور الدائم فى الحياة اليومية المسترسلة أيضًا، والتعقيب على الحركات والسكنات ولو بإشارة وإيماء إذا عسر التصريح.

* **وهذا يقود إلى سؤال:** أين تحقيق الكتلة الدعوية فى المنطقة السكنية أو على نطاق المدينة الصغيرة، من مزج واختلاط وتزاور؟

أرى أن تزاور العوائل، والحفلات الجامعة، وإيجاد نواد محلية أو فروع جمعية تكون «مثابة» دائمة ومفصل التقاء وانتشار دائم متكرر عند الإمكان، مع اقتباس طريقة جماعة التبليغ فى التعبّد والاعتكاف فى المساجد والتعهد بخدمة بيئية مثلا على مدى المنطقة مثل جماعة السلام

الأخضر، أو إصلاح اجتماعى ضد المخدرات مثلاً، أو مرفق إغاثى تنفيذى لمؤاساة العوائل الفقيرة، أو محو الأمية، أو العيادة الطبية التعاونية، أو مركز شباب، وجمعية ترويج الحجاب، أو مقهى إنترنت تعاونى، وأمثال هذه المبتكرات التى تحقق التعارف والامتزاج والتواصى بالحق والتواصى بالصبر والعفاف والأخلاق والالتزام الإيمانى، وتتيح رقابة سهلة، وسيطرة ممزوجة بحرية تصرف لنسائنا وأولادنا وبناتنا والمقربين منا، وهذه المبتكرات إذا سادت فى كل منطقة من المدن الكبيرة وفى المدن الصغيرة والقرى فإنها تعتبر خطوة فى تحقيق «المجتمع المسلم» الذى تهدف إليه الدعوة، ونكون قد قللنا الشر الآتى من القنوات الفضائية وأهل السوء فى المحتمع العام، والأمر منوط بالإمكان المالى والأمنى، ولكن نسدد ونقارب ما استطعنا، وندرب الناس على التعاون وبذل المال لصالح أولادهم، والمردود التربوى من كل ذلك عظيم، ويمكن أن يتم تشغيل صغار الدعاة والجدد فى أكثر هذه المثابات والنوادى والمراكز من دون إرهاق الكبار والقدماء الذين يرصدون لمهام أخرى، والجمعيات الخيرية مخاطبة بتبديل خططها وتحوير نمطها فى الصرف على النكبات الكبرى التى هى مهمة الحكومات إلى الصرف على المشاريع الصغيرة الدائمة التى فيها إصلاح اجتماعى ورعاية للشباب وتحقيق لتطوير مدنى عصرى للمجتمع، مثل ترويج الكمبيوتر والوسائل الإبداعية فى المؤسسات الشبابية، وكذلك نظرية تطوير المساجد الجديدة إلى مراكز إسلامية ببناء طابق تحتى للخدمات الاجتماعية وملاحق يمكن أن توفر نصف المطلوب، والتجربة الميدانية فيها تفصيل كثير ووصايا تنفيذية تؤخذ مشافهة لا كتابة.

* وبعض شباب الدعوة فيهم حماسة زائدة وطاقة مخزونة وافرة، يكونون بها أظهر من أقرانهم، فيولدون حرجًا لمربيهم حتى يحار كيف يسلك معهم ويجارى طاقتهم ويلبى طموحاتهم!

والتجربة تدل على أن إحداث طفرة لهم يقفزون بها إلى مراتب المسئولية أمر فيه خطر، فإنهم يظلون بحاجة إلى نضوج عقلى وتوازن نفسى وحكمة، وكل ذلك لا يأتيهم سريعًا، وإنما يكتسبونه بطول العيش مع الدعوة، وبتجاوز سن الشباب الأول، من أجل تجاوز احتمالات الغرور والتعالى، ثم المعاناة ضرورية لكى يُنزلوا معانى فقه الدعوة منازلها الصحيحة دون تطرف إذا صاحبت المسئولية دورات تطويرية.

والمظنون أن مواكبة طموحات العنصر الفائر إنما تكون بثلاثة حلول متساوية:

ثلث فى منهج مطالعة شامل يختاره المربى له، يكلف به تكليفًا أكثر من أصحابه، فيه كتب شرعية وفكررية وتاريخة وأدبية وسياسية، وبذلك نستهلك ونمتص بعض طاقته فى خير لا خلاف فيه، ولا بأس من التبكير فى دفعه إلى التخصص وصرف جهد فيه من دون إهمال لتفوقه الدراسى الجامعى.

وثلث من وقته نحبب له فيه المسجد والخلوة والتفكر وتلاوة القرآن والحفظ والدعاء والتنفل، فيزداد إلى خير العلم خيرا، وتهدأ نفسه، وتبرز رزانته، ويرجح عقله. ولكن لا يقوى على الاستمرار من دون قرين، فنفتش عن مثيل يزامله.

والثلث الباقى يزوره فيه المربى ويجالسه ويصطحبه معه فى غدوه ورواحه ربما، فإن لم يستطع فيستعين بأقرب عنصر له سمت حسن.

وكل هذا إنما هو حديث عن فضلة الوقت، وإلا فهو مشترك مع أقرانه فى تنفيذ الواجب الجماعى.

فإذا أبدى تجاوبًا مع ما نخططه له وآنسنا منه رشدًا: ساغ أن نفتعل له قفزات صغيرة بينها فواصل، لا قفزة واحدة كبيرة.

* والمصارحة فى أول ابتداء العيب أفضل، وبدونها قد يكبر العيب ويصعب علاجه. وتعسف صاحب العيب أول مرة عند نصحه محتمل، ولكن أثر تعسفه وضجره قليل السوء، بينما إذا كبر العيب مع الزمن: سرى الأثر وتعدّى. وكان عُرفنا الأول هو التناصح وقبوله، ثم ولد عنصر التليفزيون والانفتاح العالمى جُرأة فى التابعين ورفضًا وادعاء حقوق ما كانت فى جيلنا، وإنما كانوا يربوننا بالنظرات، وبها فقط تصل رسالة إنذار أو عتاب كاملة لا تحوج المربى إلى كلام.

ويحسن بالمربى أن يعود تلميذه الصراحة معه فى بحث مشاكله، ولا ريب أنه لا يستطيع ذلك معه فى الفترة الأولى من تعرفه والتى قد تمتد إلى أشهر، ولكنه يستطيع تنمية شجاعة تلميذه على الصراحة تدريجيًّا.

وهناك عدة عوامل مساعدة تفتح نفس التلميذ تجاهه، وتنقله من التكتم إلى التشاور

وطلب النصيحة والمحاورة المضبوطة بقواعد الاحترام والأدب، ولكن أظهرها: رؤية التلميذ مربيه ملتزمًا بأصول النصيحة إذا بادر إلى إسدائها، بأن لا يصحبها تشهير أو تبكيت، وأن يستعمل خلالها الألفاظ الرقيقة والنبرات الرفيقة، وأن يلقن المربى تلميذه ضمن معاتبته كلمات اعتذار تأتى عبر السياق كأنها عفوية فيستعيرها التلميذ من لسان أستاذه ويجعلها عذرًا له، ومسالك اللباقة هنا واسعة.

* وهناك صنف من الدعاة الجُدد فيهم ميل ظاهر إلى الاتصال بالكبار من الدعاة والمسئولين وتجاوز مربيهم. والتجارب تدل في الأغلب على وجود شوائب من الفضول والاستشراف عندهم، وربما بعض تكبّر على الأقران، وقد تصرعهم الفتن الحادثة ولا يثبتون. لكن يجب الانتباه إلى حالة مشابهة لها للداعية فيها بعض عذر، وذلك إذا كان ذكيًّا ويملك طاقة فوّارة، والمربى المباشر لا يشبع تطلعاته، فيضطر إلى تجاوزه، وتمييز هذه الحالة عن التى قبلها إنما هى من وظائف الفراسة، والقرائن مُحكمة، فمن رأيناه متواضعًا، ويسأل عن حاجة حقيقية لمعرفة الجواب ولمعرفة ما يعنيه وليس ما لا يعنيه: قبلنا منه شبه الفضول، ونصحنا مربيه بالجد وطلب مزيد العلم.

* وهل يكون التلميذ أفقه من المربى أحيانًا؟

لا يكون ذلك فى العادة، والجماعة تراعى فى الأغلب أن يكون المربى أفقه من تلامذته، ولم أر فى حياتى الدعوية غير أمثلة فى الأوقات الاستثنائية الطارئة، ولكنى رأيت أن التلميذ قد يكون أعلم من المربى وليس أفقه، ولذلك تسويغ، فإن التلميذ قد يكون أكثر جمعًا لفروع العلم، ولكن إحاطة المربى بمقاصد الشريعة وكليّاتها ومصالح المسلمين هى التى تميزه وتجعله أعمق فهمًا وإن لم يستكثر من علم الفروع وحفظ الحديث والأقوال، وبذلك يكون أجدر وتأميره صحيح، ويترجح ذلك إذا استحضرنا معنى سعة الاحتياجات التربوية وعدم اقتصارها على العلم، فإن الجديد الذى معه العلم يحتاج وعيًا سياسيًّا، وخبرة تنظيمية، وتزكية روحية قلبية، ويفترض أن قديم الانتماء أوعى وأخبر من الجديد، ثم أزكى فى الغالب، وبذلك يستوى تأميره موافقًا لنظريات التربية والشروط.

* وكم من مخالفة لنظرية الشروط هذه نجدها عند الدعاة الجدد، من توثيق بخيل ولا

يدرون أن البخل أساس الأدواء، أو تساهل مع شاب كان فى جماعة إسلامية صغيرة ثم أدرك وفور المصلحة فى الالتحاق بالدعوة الأصل ذات الانتشار، ولكن من بعد ما تصلب على طرائق الجدل والفضول التى تلقنها سابقًا، فتكون طبيعته الجدلية الاعتراضية مانعًا لنا من الانتفاع بفضل يحوزه، وكم جرى جديد وراء خطيب عواطف، واغتر بصيحة جهاد لا يسندها استعدادا ولا يشهد لها تخطيط، وكم عذر ملحاح نفسه بعجز ويطلب منا المعجزات.

* ولكن على العكس رجال يسرفون فى تضعيف الرهط، ويبالغون فى وصف ترهل وتخلّف، ولو جئنا نفحص حال الدعوة عامة لوجدنا مزيد انتشار، ومواصلة إنتاج فكرى، ونمو وعى، واجتياز مراحل، وفى كل قطر نوع إبداع أو فتوح أو ممارسة ناجحة أو استثمار صحوة، مما ينفى قول أهل المنظار الأسود، ولا يبرأ أحد من نقص وخطأ وفتور من بعد نشاط، لكن العبرة بالموازنة، والصواب مازال راجحًا على مقدار الخطأ، مما يشهد أن الدنيا بخير رغم صعوبة الظرف والظلم والألغام المزروعة، فلولا أنصف ناقد، فإن الربّ رحيم لطيف، يبارك وينصر ويأخذ بيد الدعوة حتى وإن كان البذل قليلا، ورأس مالنا حُرقةٌ وغضبٌ على الباطل واستعلاء على الفجور إن لم نكن وعاة علماء، وبقلوبنا الكبيرة نعوض ونستدرك على العجز فى أعمالنا الصغيرة، وعلى نياتكم ترزقون.

* وفى الزمان القديم وقف قيس بن حَكّومى يحدثنى، وكان شابًّا وسيمًا يتأنق، وفى يدى بطارية كهربائية صغيرة مستهلكة جئت بها لأشترى مثلها، ولكن غلافها مازال يلمع ولا يعرف أحد أنها فارغة من الطاقة إلا إذا جرّبها، فقلت مرتجلاً: يا قيس، احذر أن تكون فارغ القلب مثل هذه البطارية اللامعة المظهر الجوفاء المخبر. ثم هاجرت وانقطعت عنه ورأيته بعد سنوات طويلة فقال: طيلة هذه السنوات ما وقفتُ أمام المرآة أمشط شعرى فأرى جمالى إلا وتذكرت قولك فأعظ نفسى.

وفى هذا دليل على أن التربية تظل أمرًا وراء هندسة القول وتأليفه، وأقرب من التخطيطات والمناهج، فإنك لا تدرى كيف يكون التأثير، وربّ كلمة هامشية عفوية تكون أنفذ من قواعد التربية.

* هذا هو الذى جعلنى أبقى على الآراء والخواطر الآنفة مبعثرة لا يربطها رابط تقعيدى،

وما كنت عاجزًا عن أفعل فيها ما فعلت بمثيلاتها من الشظايا التى قبلها فأطلب الأشباه وأجعل منها قواعد، وأستخرج المزيد فأجعلها عشارية، ولكنى تعمدت إرسالها وتفريقها ومنحها الاستقلال، لأشجع الداعية المربى على أن يطلب الفوائد التربوية من بين حشد كبير من الشظايا التربوية المتناثرة التى يمكن أن يستخرجها من كتابات المجربين وإخوانه الدعاة الذين سبقوه، وليس التنظير بحتم لازم، وإنما هو صفة كمال، وفى المادة الخام غير المرتبة خير كثير وتعليم وفير، وواجب المربى أن يقوم باستقراء هادف لكتب الدعوة، وبخاصة كتب المربين، ويجردها ويستعرضها، ليستخرج جملة واسعة من الملاحظات والشظايا التربوية يحشى بها الخطة التربوية، كل فى مكانه المناسب، فإذا فعل ذلك فقد أتى نمطًا منهجيًّا صحيحًا، ويؤذن له أن يمهر فى الأداء التربوى، وهذا ما أردت أن يعيه المربون ويمهروا فيه، فإن زادوا على ذلك تنظيرًا لما جمعوا وتقعيدًا واختراع تسلسل موضوعى فذلك فضل إضافى وإيغال فى المنهجية وإتمام وكمال.

* * *